جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالقرين – شرقية

الخشوع في القرآن وآثاره
في
بناء الشخصية المعتدلة السوية

إعداد

الأستاذ الدكتور: الولي محمد محمود الشنقيطي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك – جامعة الطائف

الايميل: a.alwaly@tu.edu.sa

العدد الخامس

للعام ١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٤م

الخشوع في القرآن الكريم وآثاره في بناء الشخصية المعتدلة السوية

الولي محمد محمود الشنقيطي
قسم الدراسات الإنسانية، الكلية الجامعية بالخرمة، جامعة الطائف، المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني: a.alwaly@tu.edu.sa

الملخص:
يهدف البحث إلى الكشف عن مفهوم الخشوع ودلالاته، وأسبابه؛ ومن ثم آثاره في بناء الشخصية المعتدلة، وذلك في ضوء منهج التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم.
ويتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث، تحت كل مبحث مطالب؛ المبحث الأول: مفهوم الخشوع ودلالاته المعجمية والاصطلاحية، المبحث الثاني: دلالات الخشوع وموارده في القرآن الكريم، المبحث الثالث: أسباب الخشوع وآثاره في بناء الشخصية المعتدلة. وقد انتهج البحث منهجًا تكامليًا، جمع بين: الاستقراء والتحليل والوصف. وخلص البحث إلى نتائج، أهمها: أن معاني الخشوع تشمل أمورا كثيرا، كما يحيل إلى معان تدل على كمال الأدب والسكينة؛ مثل غض البصر وخفض الصوت، ومن معانيه الإخبات الذي يمنح صاحبه التواضع الاطمئنان والاستواء، كما يدل على الأمانة، والامتناع عن أخذ العاجلة بالآجلة، كما يعبر عن علم الخشية والاستسلام والانقياد لله. أن الراجح في حكم الخشوع في الصلاة هو اشتراطه، أو أنه واجب؛ انطلاقا من مضمون الآيات القرآنية، وتصريح الحديث الصحيح. يتناول الخشوع في القرآن أمورا كونية متعددة. ورد الخشوع بصيغ مختلفة في ثنتي عشرة آية من القرآن الكريم؛ كما وصف به خيرة خلق الله من الأنبياء والعباد الصالحين، وقد جعله القرآن رتبة فوق الإيمان؛ لذلك فهو مطلب قرآني يلزم كل مؤمن أن يتحلى به، ويسعى في تحصيله. الخشوع يكسب صاحبه حقيقة العبادات وتذوق حلاوتها وعلى رأسها الصلاة التي يمثل الخشوع روحها وأهم أوصافها، وهو يعطي المتحلي به كثيرا من الاتزان والتواضع، وبعد النظر؛ والاعتدال في السلوك المبني على التواضع واحترام الآخرين، والصدق والأمانة في المعاملات، وعدم اللجوء إلى العنف أو الشحناء في الأمور الخلافية؛ مما يجعله أبرز مؤشر تربوي على صلاح الشخص، وعلى بعده عن الإفراط والتفريط، والتزامه بالمنهج الوسط.

الكلمات المفتاحية: القرآن – التفسير الموضوعي – أخلاق القرآن – قيم قرآنية – تأثير القرآن – التشريع القرآني.

Humility in the Holy Quran and its effects in building a moderate and sound personality

Al-Wali Muhammad Mahmoud Al-Shanqiti
Department of Humanities, Al-Kharmah University College, Taif University, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: a.alwaly@tu.edu.sa

Abstract:

The research aims to reveal the concept of humility, its connotations, and its causes; and then its effects in building a moderate personality, in light of the objective interpretation approach of the verses of the Holy Quran.The research consists of an introduction and three sections, under each section there are demands; The first section: The concept of humility and its lexical and technical connotations, The second section: Connotations of humility and its resources in the Holy Quran, The third section: The causes of humility and its effects in building a moderate personality. The research adopted an integrative approach, combining: induction, analysis and description. The research reached results, the most important of which are: that the meanings of humility include many things, as it refers to meanings that indicate the perfection of manners and tranquility; Like lowering the gaze and lowering the voice, and among its meanings is humility, which gives its owner humility, reassurance and stability, as it indicates trustworthiness, and refraining from taking the immediate for the deferred, as it expresses the knowledge of fear, submission and obedience to Allah. The most likely ruling on humility in prayer is that it is a condition, or that it is obligatory, based on the content of the Qur'anic verses and the explicit statement of the authentic hadith. Humility in the Qur'an deals with various cosmic matters. Humility is mentioned in different forms in twelve verses of the Noble Qur'an; as it was described by the best of Allah's creation from the prophets and righteous servants, and the Qur'an made it a rank above faith; therefore, it is a Qur'anic

requirement that every believer must be adorned with and strive to attain. Humility gains its owner the truth of worship and a taste of its sweetness, at the forefront of which is prayer, of which humility represents the spirit and most important of its characteristics, and it gives the one who adorns it a lot of balance, humility, and foresight; Moderation in behavior based on humility and respect for others, honesty and integrity in dealings, and not resorting to violence or hostility in controversial matters; which makes it the most prominent educational indicator of a person's righteousness, his distance from excess and neglect, and his commitment to the middle path.

Keywords: Quran – Thematic Interpretation – Quranic Ethics – Quranic Values – The Influence of the Quran – Quranic Legislation.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد الخاشعين؛ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وسلك نهجه إلى يوم الدين، وبعد فإن مقدمة هذا البحث تشمل أهمية الموضوع والتي تكمن في ارتباطه بالجوانب السلوكية والتربوية وعلاقته بإصلاح القلوب والتي يترتب عليها صلاح الأقوال والأفعال، وإسهامه في تكوين الأفراد على التحمل والصبر، والتعامل مع الأعمال بجد وإخلاص، والارتقاء بالإنسان إلى مستوى من الصفاء الروحي يمكنه من تحمل التكاليف والأعباء التي تفرضها طبيعة الحياة؛ ويمكن للفرد عبره تحويل المعارف إلى مهارات ثم إلى سلوك، يجمع ولا يفرق، ويرحم ولا يعنف؛ كما تكمن أهمية الموضوع الكبرى في انطلاقه من القرآن العظيم المصدر الأول للتشريع، وأكثر المصادر صدقية على الإطلاق من الناحية المنهجية، كما تشمل المقدمة منهج الدراسة الذي يستنطق النصوص، ويحلل ويستنج على ضوء ما تقدمه الدراسة من نتائج نسأل الله أن تكون مفيدة .

وتكمن أهمية البحث في هذا الموضوع فيما يلي:

ـ ارتباط الخشوع بالقلب الذي سيد الأعضاء، ومحل نظر الخالق، وصلاحه سبب في صلاح سائر الأعضاء، وفساده سبب في فسادها جميعا؛ وقد استنفر الله في كتابه المؤمنين لخشوع القلب؛ معاتبا خيرة هذه الأمة؛ قائلا جل وعلا: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ الحديد: ١٦

ـ كون الصلاة كبيرة إلا على المتصفين بالخشوع كما صرح بذلك الكتاب العزيز؛ وقد ذهب بعض العلماء إلى اشتراط الخشوع في الصلاة كما فعل الإمام الغزالي في الإحياء(١٥٠/١)، وذهب بعض العلماء إلى وجوبه انطلاقا من الآيات القرآنية التي تتناوله؛ كما فعل ابن تيمية في فتاواه (٥٥٣/٢٢).

ـ كونه من أهم صفات المؤمنين كما صرح بذلك القرآن.

ويهدف هذا الموضوع إلى إماطة اللثام عن بعض جوانب الخشوع في القرآن؛ وما له من آثار إيجابية على بناء الشخصية المتزنة والمعتدلة في ظل وروده في السياقات

القرآنية المتعددة الأبعاد؛ والتي تمس حياة المسلم في عباداته وأخلاقه ومعاملاته وحاضره ومستقبله، في زمن كثرت فيه النحل، وتعددت فيه المشارب بين إفراط وصل ـ في كثير من الأحيان ـ إلى حد التطرف، وتفريط وصل ـ عند البعض ـ إلى حد التخلي عن بعض جواهر المسائل التعبدية والأخلاقية؛ مما جعل الاستنارة بمصابيح القرآن ضرورة لا مناص منها للعودة إلى الوسطية التي جعلها الله ميزة لهذه الأمة الخاتمة؛ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٤٣؛ وهذه الوسطية تتطلب السير في نهج لا غلو فيه ولا تفريط؛ نهج يتسم صاحبه بالصبر والتواضع والإيثار وحب الخير للناس؛ وهي أمور كبيرة إلا على الخاشعين.

ولا تخلو دراسة هذا النوع من الموضوعات من مشاق تنبع من ندرة المراجع المختصة فيها؛ علاوة على صعوبة تعريفه تعريفا جامعا مانعا لتعلقه بالقلوب، من ناحية؛ ثم انعكاسه على الجوارح بنسب متفاوتة، لا يمكن الاطلاع عليها أصلا، بله وصفها وصفا دقيقا؛ مما يجعل الحديث عنه والكتابة فيه تعتمد على قدر كبير من الحرز والتخمين لا يسلم صاحبه من مجازفة؛ علاوة على اختلاف المهتمين بالظاهر من الفقهاء ومن على شاكلتهم مع المهتمين بالبواطن من الصوفية ومن على شاكلتهم في تصنيفه ودرجة الاهتمام به، إلا أن ربطه بالقرآن والبحث فيه من خلال تناوله له يساعد في التغلب على بعض تلك الأمور؛ ويمكن أن يساعد في الحد من الخلاف حوله، وربما ردم الهوة حول بعض مدلولاته.

وبالاستعانة بالله أولا وأخيرا؛ ثم بالعودة إلى ما دوَّنه علماء التفسير وأصحاب معاجم اللغة من مفاهيم للخشوع من خلال وروده في آيات القرآن الكريم، وبحسب ما تتحمله الأساليب والصيغ اللغوية التي ورد بها في كتاب الله تعالى، وما قدمه الفقهاء والصوفية من تصورات للخشوع نأمل أن يكون هذا البحث لبنة هامة في بناء صرح معرفي يكشف المزيد من معادن هذا الكتاب المبارك، ويقرب الناس من الحياة الطيبة التي يرشد الناس إليها؛ والتي أناطها القرآن بالأعمال الصالحة؛ قال تعالى: " مَنْ عَمِلَ

صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل: ٩٧).

وفي إطار التوطئة لهذا العمل المتواضع، وتجلية مقاصده يمكن التنويه إلى أنه يصبو إلى تبيان جوانب هامة؛ بعضها له علاقة بلغة القرآن، وبعضها له علاقة بفقه القرآن، وبعضها له علاقة بكشف القرآن لقضايا كونية ومسائل غيبية لا يمكن للبشر التوصل إليها إلا بخبر من خالق الكون؛ و من المعروف أن القرآن العظيم تناول هذا الموضوع الذي بين أيدينا تناولا شافيا مبهرا للعقول ـ شأنه في ذلك شأن سائر الموضوعات القرآنية؛ ويمكن أن يعالجه تناولنا هذا ـ على تواضعه ـ من خلال مواطنه في السياقات القرآنية؛ من حيث تنوع الخشوع، وطريقة تناوله في القرآن، والتعبير عنه بأساليب متعددة وورود في سياقات مختلفة توحي بارتباطه بقضايا متنوعة تتناول أمهات العبادات والقضايا الكونية؛ علاوة على تأثيره على تكوين الأفراد، وتنمية مقومات الشخصية البناءة التي تتحلى بالصبر، وتنطلق من اللب، دون إهمال للمظهر الذي ينبغي أن يكون مرآة لصفاء القلوب وإرادة الخير وزرع قيم التسامح، والابتعاد عن كل أنواع العنف المشين...

خطة البحث:

يمكن تقسيم البحث حسب عرض المادة العلمية إلى مقدمة وثلاثة مباحث، تحت كل مبحث مطالب؛ وذلك على النحو التالي:

المقدمة

المبحث الأول: مفهوم الخشوع ودلالاته المعجمية والاصطلاحية

المطلب الأول: الخشوع في المعاجم العربية.

المطلب الثاني: الخشوع في اصطلاح العلماء.

المطلب الثالث: الخشوع سنة كونية.

المبحث الثاني: دلالات الخشوع وموارده في القرآن الكريم

المطلب الأول: الصيغ اللغوية للخشوع في القرآن ودلالاتها.

المطلب الثاني: الخشوع في القرآن روح الصلاة.

المطلب الثالث: الخشوع شرط في الفلاح وتحقيق صفات المؤمنين.

المطلب الرابع: الخشوع في مشاهد القيامة.

المبحث الثالث: أسباب الخشوع وآثاره في بناء الشخصية المعتدلة

المطلب الأول: أسباب الخشوع وأهميتها.

المطلب الثاني: آثار الخشوع في تنمية الاعتدال في الأخلاق.

المطلب الثالث: آثار الخشوع تنمية الاعتدال وفي المعاملات.

الخاتمة، وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول:

مفهوم الخشوع ودلالاته المعجمية والاصطلاحية

إذا أردنا معرفة حقيقة الخشوع ودلالته المعنوية فلابد من وقفة مع المعاجم اللغوية، وعرض نتف من أشعار العرب التي تميط الأذى عن معاني هذا المصطلح القرآني الحامل لدلالات عظيمة ترتبط بأوجه عدة من النشاط البشري؛ وتؤثر على الأعمال والأخلاق؛ وسنعرض لذلك في المطالب التالية:

- المطلب الأول: الخشوع في المعاجم العربية:

لا تبتعد المعاجم العربية كثيرا عن المعاني القرآنية للخشوع؛ بل إنها تسير في ظلالها غالبا؛ ويعود الخشوع في اللغة إلى معان منها:

١ـ الخضوع؛ فمادة خشع قريبة المعنى من لفظ خضع؛ لدلالة كل منهما على الانضباط والانقياد، ولزوم الطاعة لمن يتحكم في كل منهما؛ وإن كان الخشوع ألصق بالقلوب التي تعبر عنها انفعالات الأصوات والأبصار، بينما يرتبط الخضوع بالأبدان؛ قال ابن فارس: "يُقَالُ خَشَعَ، إِذَا تَطَامَنَ وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشُوعًا. وَهُوَ قَرِيبُ الْمَعْنَى مِنَ الْخُضُوعِ، إِلَّا أَنَّ الْخُضُوعَ فِي الْبَدَنِ وَالْإِقْرَارَ بِالِاسْتِخْذَاءِ، وَالْخُشُوعَ فِي الصَّوْتِ وَالْبَصَرِ"[١].

وقد فرق السبكي بين الخشوع والخضوع بمحل كل منهما؛ وذلك بصدور الأول عن القلب، والثاني عن الأعضاء؛ فقال في شرحه لحديث عقبة بن عامر في سنن أبي داود عند قوله صلى الله عليه وسلم": «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ، يُقْبِلُ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا قَدْ أَوْجَبَ»[٢]، قال: والمراد هنا بإقبال القلب خشوعه، وبإقبال الوجه خضوع الأعضاء، والقلب من الحيوان معروف، ويطلق

---

[١]ـ معجم مقاييس اللغة؛ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، ١٦٢/٢

[٢] ـ الحديث صحيح؛ انظر: صحيح سنن أبي داود، المؤلف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠ هـ)، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م، ٢٩٩/١

على العقل وهو المراد هنا، ومنه ينشأ صلاح الجسد وفساده؛ وسمى قلبا لتقلبه في أمره وأراد بالوجه ذاته ففيه إطلاق اسم الجزء على الكل، وجمع صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بهاتين اللفظتين أنواع الخشوع والخضوع لأن الخضوع في الأعضاء والخشوع في القلب"[1].

وبذلك يتضح أن هناك علاقة وطيدة بين خشع وبين خضع في دلالتهما العامة على الانسجام وعدم الخروج على أوامر من تلزمه طاعته؛ إلا أن الخشوع يبدو أعم من جهة شموله لمعان قلبية من جهة، ومظاهر صوتية وبصرية من جهة أخرى؛ قال ابن منظور: "وقيل: الخُشوع قريب من الخُضوع إلا أَنّ الخُضوع في البدن، وهو الإِقْرار بالاستِخْذاء، والخُشوعَ في البدَن والصوْت والبصر كقوله تعالى:﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ القلم: ٤٣؛ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ طه: ١٠٨[2].

قلت: وبما أن الخشوع مصدره القلب في الأساس ـ وإن كان يؤثر على التصرفات ـ والخضوع مصدره البدن فإن الأول أصدق، وأقرب إلى قناعة صاحبه؛ في حين قد يكون الثاني بالقوة أو الإجبار؛ وبالتالي يكون فيه مشقة على النفس؛ وربما ضعف تقبله والانقياد لصاحبه في بعض الأحيان.

٢ ـ **غض البصر وخفض الصوت:** توجد دلائل على أن هناك علاقة بين خشوع القلب، وبعض الانفعالات ذات الطابع السلوكي والنفسي من غض للبصر، وخفض للصوت؛ فال ابن منظور: " خَشَع يَخْشَعُ خُشوعاً، واخْتَشَع وتَخَشَّعَ: رَمَى بِبَصَرِهِ نَحْوَ الأَرض، وغَضَّه وخفَضَ صَوْتَهُ. وَقَوْمٌ خُشَّع: مُتَخَشِّعُون. وخشَع بصرُه: انْكَسَرَ" [3].

---

[1]ـ المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود، المؤلف: محمود محمد خطاب السبكي، الناشر: مطبعة الاستقامة، القاهرة ـ مصر
الطبعة: الأولى، ١٣٥١ ـ ١٣٥٣ هـ، ١٥٧/٢.

[2]ـ لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة ـ ١٤١٤ هـ، ٧١/٨، مادة "خشع"،

[3]ـ المصدر السابق ذاته.

وقريب منه ما نقله ابن تيمية عن مجاهد من قوله: "الخشوع: غضُّ البصر وخفض الجناح". وقال: "كان الرجل من العلماء من أصحاب محمد إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمنَ أن يشُدَّ بصره إلى شيء، أو يحدِّث نفسَه بشيء من شأن الدنيا"[1].

ـ ومما يدل على أن من معاني الخشوع خفض البصر والانكسار؛ قال ذو الرمة:

تَجَلَّى السُّرى عن كلِّ خِرْقٍ كأَنه صَفِيحةُ سَيْفٍ، طَرْفُه غيرُ خاشِعِ.[2].

والمقصود بالخشوع في قوله تعالى: "وخشعت الأصوات للرحمن" أهل الأصوات كما نبه إلى ذلك القرطبي؛ بقوله ـ معلقا على الآية ـ "يقول تعالى ذكره: وسكنت أصوات الخلائق للرحمن فوصف الأصوات بالخشوع، والمعنى لأهلها؛ إنهم خضع جميعهم لربهم، فلا تسمع لناطق منهم منطقا إلا من أذن له الرحمن" [3].

٣ـ الإخبات: توجد علاقة لغوية وطيدة بين خشع وأخبت لارتباطهما بالتواضع والاطمئنان في الأرض؛ قال صاحب القاموس المحيط: " من الْمجَاز: (أَخْبَتَ) الرّجلُ لِلَّهِ: إِذا (خَشَعَ وتَواضَعَ)، {وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبّهِمْ} (هود: ٢٣): اطْمَأَنُّوا إليه. وَهُوَ يُصلِّي بخُشُوعٍ وإِخْباتٍ، وخُضوعٍ وإِنْصات. وقلبُه مُخْبِتٌ. وَفِي اللِّسَان: وخَبَتَ ذِكْرُه. إِذا خَفِيَ، وَمِنْه المُخْبِتُ من النّاس. ورُوِيَ عَن مُجَاهد فِي قَوْله تَعَالَى: {وَبَشّرِ الْمُخْبِتِينَ} (الْحَج: ٣٤)، قَالَ: المُطْمَئِنّينَ. وقيلَ: هم المتواضِعُون. وكذلك فِي قَوْله تعالَى: {وَأَخْبَتُواْ إِلَى

---

[1] ـ شرح عمدة الفقه [آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال (٢٥)]، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) ـ دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩ م، ٦٦٨/٢. «جامع البيان» (٥/ ٢٣٤)، والأثر أخرجه سعيد بن منصور في «السنن» (٣/ ٩٢١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٤٤٩)

[2] ـ ومعنى البيت: وتجلى": تكشف، عن كل خرق و"الخرق": الفتى الظريف الذي يتخرق في الأمور، كأنه سيف في مضيه. و"طرفه غير خاشع": أي لم يأخذ فيه النوم فينكسر الطرف. راجع: ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب، المؤلف: أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي (ت ٢٣١ هـ)، تحقيق: عبد القدوس أبي صالح، الناشر: مؤسسة الإيمان جدة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٢ م ـ ١٤٠٢ هـ، ٨١٤/٢. والبيت من قصيدة في (الطويل)، مطلعها: خليلي عوجا عوجة ناقتيكما ... على طلل بين القلات وشارع "القلات وشارع": موضعان، شرح الديوان ٧٧٧/٢

[3] ـ تفسير القرطبي، توزيع: دار التربية والتراث ـ مكة المكرمة ـ الطبعة: (بدون تاريخ نشر)، ٣٧٣/١٨

رَبّهِمْ} (هود: ٢٣)، أَي: تَواضَعُوا، وَقيل: تَخَشَعُوا لربّهم. قَالَ: والعربُ تَجعَلِ (إلى) فِي مَوضِع اللاّم. وَفِيه خَبْتَةٌ: أَي تَواضُعٌ. وَفِي حَدِيث الدُّعَاءِ: (واجْعَلْنِي لَكَ مُخْبِتاً)[١]، أَي: خَاشِعًا مُطيعاً. وأَصلُ ذلك كلِّه من الخَبْت: المُطْمَئنّ من الأَرض" [٢]. وقد نقل أبو حاتم عن قتادة قوله: " وَأَخْبَتُوا قَالَ: الإِخْبَاتُ: الْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُعُ"[٣].

"وقال الحسن: الإخبات: الخشوع للمخالفة الثابتة في القلب وأصل الإخبات الاستواء، من الخبت وهو الأرض المستوية الواسعة فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله- عز وجل- المستمرة ذلك على استواء"[٤].

٤- **التواضع والثبات**؛ قال ابن فارس: "يُقَالُ قُفٌّ خَاشِعٌ: لَاطِئٌ بِالْأَرْضِ. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: بَلْدَةٌ خَاشِعَةٌ: مُغْبَرَّةٌ. قَالَ جَرِيرٌ:

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ ... سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّعُ[٥].

---

[١]- الأدب المفرد، وصححه الألباني، ونص الدعاء (رَبِّ اجْعَلْنِي شَكَّارًا لَكَ، ذَكَّارًا لَكَ رَاهِبًا لَكَ، مِطْوَاعًا لَكَ ، مُخْبِتًا لَكَ، أَوَّاهًا، مُنِيبًا تَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَاغْسِلْ حَوْبَتِي وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، واهدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لساني، واسلل سخيمة قلبي"، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، المؤلف: محمد بن إسمال، أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ)، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، رقم: ٥١٧ ص:٢٤٨

[٢] - القاموس المحيط للفيروز أبادي، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، أعوام النشر: (١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ) = (١٩٦٥ - ٢٠٠١ م)، وصَوّرتْ أجزاءً منه: دار الهداية، ودار إحياء التراث وغيرهما، ٥٠٣/٤.، مادة " خبت.

[٣]- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ، ٢٠٢٠/٦.

[٤] - تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز ، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ، ٥٥٠/١٢.

[٥]- مطلع القصيدة: بان الخليط برامتين فودَّعوا ... أو كلَّما رفعوا لبينٍ تجزع، ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، المحقق: د. نعمان محمد أمين طه، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ص: ٩١٣/٢

قال ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ الأحزاب: ٣٥

والخاشعين: يعني المتواضعين لله في الصلاة؛ من لا يعرف من عن يمينه، ولا من عن يساره، ولا يلتفت من الخشوع لله، والخاشعات يعني المتواضعات من النساء"[١].

وبذلك يكون الخشوع تذكيرا للإنسان بأصل خلق البشر من تراب؛ ليلا يترفع وينسى أصله؛ يقول ابن القيم : "ولمَّا خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديرًا بأنْ لا يخرج عن أصله؛ بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطَّبْع والنَّفس بالخروج عنه؛ فإنَّ العبد لو تُرِكَ وطبعه ودواعي نفسه لتَكَبَّرَ، وأَشِرَ، وخرج عن أصْله الذي خُلِق منه، ولوَثَب على حقِّ ربِّه، من الكبرياء والعَظَمة، فنازعه إيَّاهما؛ فأُمِر بالسُّجود خضوعًا لعظمة ربِّه وفاطره، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له؛ فيكون هذا الخشوع، والخضوع، والتذلُّل رادًّا له إلى حكم العبوديَّة، ويتدارك به ما حصل له من الهفوة والغفلة، والإعراض الذي خرج به عن أصله، فَيتَمَثَّل له حقيقة التراب الذي خلق منه".[٢]

قلت: ويمكن اعتبار معاني الخشوع تصب في إطار التواضع وخفض الجناح وعدم الترفع، وانكسار القلب للخالق، مما يولد شعورا بالعزة بالله، والتأثر بكلامه؛ مما ينشئ في القلب نورا بسبب العلم بالله؛ ثم تتأثر منه الجوارح سكونا واطمئنانا؛ ويتولد من ذلك تغير سلوك الخاشع نحو الأفضل بكف الأذى، والسعي في بذل المعروف؛ وهذا الخشوع هو الذي يمكن تسميته اختياريا؛ وهو المطلوب في الدنيا أما الخشوع المذكور في وصف أهل النار فهو شعور بالذل لهول المشهد ولندامة صاحبه على ما فرط في جنب الله؛ وليس لصاحبه خيار لأنه أضاع فرصته في الدنيا؛ والخشوع بكل أنواعه تعبير قرآني يفيد المرء في حاضره، ويبصره بمستقبله؛ وهذا ما سنحاول تبيان بعض جوانبه في هذه السطور.

---

[١]- تفسير ابن أبي حاتم: ٣١٣٤/٩.

[٢] - كتاب الصلاة [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال]، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، المحقق: عدنان بن صفاخان البخاري، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - محمد أجمل الإصلاحي - علي بن محمد العمران، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، ص: ٣٦٢.

ـ المطلب الثاني: الخشوع في اصطلاح العلماء:

لقد ورد لفظ الخشوع في الحديث في ثنايا تبيان أحكام الصلاة، وقد وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم بين أحد شروط الصلاة الذي هو الطهارة وبين أحد أركانها الذي هو الركوع دلالة على أهميته؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم عنْ عُثْمَانَ. ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ. فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا. إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ. مَا لَمْ. يُؤْتِ كَبِيرَةً. وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ"[1] وإذا كان الفقهاء والصوفيون قد اتفقوا على أهمية الخشوع في الصلاة انطلاقا من هذا الحديث وأمثاله، فإنهم لم يصلوا إلى تعريف موحد جامع مانع له؛ رغم اتفاقهم على تعلقه بالقلب منشأ والذي ركز عليه الصوفية، مستدلين بكثير من الآثار والقصص المروية عن السلف في انكسار قلوبهم وبكائهم في التلاوة والصلاة؛ وقد جمع منها الغزالي الكثير في إحياء علوم الدين، واتهم الفقهاء بعدم إعطاء الخشوع ما يستحقه من عناية؛ معتبرا أنه لا صلاح للأعمال الطاهرة بدونه؛ قائلا: "فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة، وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجاً عن فنه"[2]؛ وقد وصل الغزالي إلى حد اشتراط الخشوع في الصلاة مستدلا ببعض نصوص القرآن، وببعض الأدلة الأخرى؛ حيث قال في: "بيان اشْتِرَاطُ الْخُشُوعِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ: اعْلَمْ أَنَّ أَدِلَّةَ ذلك كثيرة؛ فمن ذلك قوله تعالى "أقم الصلاة لذكري" وَظَاهِرُ الْأَمْرِ الْوُجُوبُ وَالْغَفْلَةُ تُضَادُّ الذِّكْرَ فَمَنْ غَفَلَ فِي جَمِيعِ صَلَاتِهِ كَيْفَ يَكُونُ مُقِيمًا لِلصَّلَاةِ لِذِكْرِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: "وَلَا تَكُنْ مِنَ الغافلين" نهي وظاهره التحريم، وقوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ النساء: ٤٣ تَعْلِيلٌ لِنَهْيِ

---

[1] ـ أخرجه مسلم في صحيحه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها، عام النشر: ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، رقم الحديث:: ٢٢٨،

[2] ـ إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت؛ ١٨/١

السَّكْرَانِ وَهُوَ مُطَّرِدٌ فِي الْغَافِلِ الْمُسْتَغْرِقِ الْهَمَّ بِالْوَسْوَاسِ وَأَفْكَارِ الدُّنْيَا "[1] بينما ركز الفقهاء على ارتباط الخشوع بالجوارح باعتبار حركاتها مظهرا له؛ انسجاما مع طبيعة ارتباط الخشوع بالقلب وأهمية ذلك في استحضار معاني أقوال الصلاة، وانسجام الأفعال مع أعمالها الواردة في الأحاديث؛ وإن كان الفقهاء لم يعطوا الخشوع ما يكفي من البحث مقارنة بالأعمال الظاهرة؛ مما يجعله يحتاج إلى مزيد من الدراسة؛ خاصة بالاعتماد على القرآن الذي جعله أساسا في أعظم عبادة بعد الشهادتين.

وقد ذكر ابن تيمية أن الخشوع واجب في الصلاة اعتمادا منه على مفهوم الآية؛ حيث قال: " وإذا كان غير الخاشعين مذمومين دل ذلك على وجوب الخشوع. فمن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ البقرة: ٤٥، لا بد أن يتضمن الخشوع في الصلاة"[2]. وقال أيضا: " ويدل على وجوب الخشوع فيها أيضا قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ المؤمنون: ١ - ١١ ، ثم قال: "أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة. وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم. وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال. إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها؛ لأن الجنة تنال بفعل الواجبات دون المستحبات. ولهذا لم يذكر

---

[1] - إحياء علوم الدين: ١٥٩/١

[2] - مجموع الفتاوى : ٥٥٣/٢٢.

في هذه الخصال إلا ما هو واجب. وإذا كان الخشوع في الصلاة واجبا فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعا"[1].

وقد ذهب القرافي إلى أنه من المندوبات وسماه من آداب القلوب، وذكر أن الصلاة لا تبطل بدونه؛ إلا أنه اعترف بأنه أفضل أوصاف الصلاة، ولا يتحقق أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر إلا به؛ وقد ذكر أن ترك الخشوع في الصلاة سوء أدب مع الخالق، وأن التفات القلب عن الله في الصلاة أعظم من التفات البدن؛ فقال: "من المندوبات آداب القلوب؛ فمنها الخشوع وهو اتصاف القلب بالذلة والاستكانة والرهب بين يدي الرب، قال الله تعالى {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون} والخشوع أفضل أوصاف الصلاة؛ ولذلك أمرنا بالمشي إليها بالسكينة والوقار مع تفويت الاقتداء والمبادرة إلى الطاعة وحضور الأشغال المانعة منه، وما تؤخر جملة الصلاة له إلا وهو من أفضل صفاتها، ومنها الفكرة في معاني الأذكار والقراءة فإن كانت دالة على توكل توكل عليه أو على الحياء استحيا منه أو على التعظيم عظمه أو المحبة أحبه أو الإجابة أجابه أو زجر عزم على ترك المخالفة، ولا يشتغل عن الفكرة في آية بالفكر في آية أخرى، وإن كانت أفضل لما فيه من سوء أدب المناجاة والإعراض عن الرب بالقلب الذي هو أفضل أجزاء الإنسان؛ ولذلك هو أقبح من الإعراض عنه بالجسد؛ ولذلك قال معاذ بن جبل: إن الشيطان ليشغلني عن القراءة بذكر الجنة والنار فجعله من الشيطان، وإن كان قربة عظيمة فهذه هي الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر وتكون اللام فيها للكمال كما هي في صفات الله تعالى كما قال سيبويه وهي مناسبة لذلك فإن القلب إذا اتصف بهذه الصفات في الصلاة كان إذا تخلل منها قريب العهد بذكر الزواجر عن القبائح فلا يلابسها والمرغوبات في المدائح فلا يفارقها"[2].

وقد قال في الفروق:" الصُّورَةُ السَّابِعَةُ الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ مَنْدُوبٌ إلَيْهِ لَا يَأْثَمُ تَارِكُهُ فَهُوَ غَيْرُ وَاجِبٍ"[3].

---

[1] ـ ٢٢/٥٥٤.

[2] ـ الذخيرة، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت ٦٨٤هـ)، تحقيق:، جزء ١، ٨، ١٣: محمد حجي، جزء ٢، ٦: سعيد أعراب، جزء ٣ ـ ٥، ٧، ٩ ـ ١٢: محمد بو خبزة، الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م، ٢/٢٣٥.

[3] ـ الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت ٦٨٤هـ)، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، ٢/١٢٩.

أما الرازي في تفسيره لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ المؤمنون: ٢

أورد الخلاف في حقيقته؛ لكنه تبنى القول بوجوبه انطلاقا من مفاهيم قرآنية؛ حيث قال: "وَاخْتَلَفُوا فِي الْخُشُوعِ فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ كَالْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ كَالسُّكُونِ وَتَرْكِ الِالْتِفَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَهُوَ الْأَوْلَى. فَالْخَاشِعُ فِي صَلَاتِهِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَحْصُلَ لَهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْأَفْعَالِ نِهَايَةُ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ لِلْمَعْبُودِ، وَمِنَ التُّرُوكِ أَنْ لَا يَكُونَ مُلْتَفِتَ الْخَاطِرِ إِلَى شَيْءٍ سِوَى التَّعْظِيمِ، وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَارِحِ أَنْ يَكُونَ سَاكِنًا مُطْرِقًا نَاظِرًا إِلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِ، وَمِنَ التُّرُوكِ أَنْ لَا يَلْتَفِتَ يَمِينًا وَلَا شَمَالًا، وَلَكِنَّ الْخُشُوعَ الَّذِي يُرَى عَلَى الْإِنْسَانِ لَيْسَ إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَارِحِ فَإِنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ لَا يُرَى"[1].

قلت: والراجح في حكم الخشوع ما أوردناه من قولي حجة الإسلام الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية؛ فإن الخشوع يدور بين الوجوب والشرط؛ وذلك ينسجم مع حديث عثمان المتقدم في صحيح مسلم وفيه: "ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب... الحديث" وغيره مما مر معنا من الأدلة؛ فقد وضع فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخشوع بين شرط الصلاة الذي هو الطهارة، وبين ركنها الذي هو الركوع فدل ذلك على تردده بينهما، وذلك ما تؤيده النصوص القرآنية، ويدل عليه ما يروى من أخبار شبه متواترة في صفة صلاة الخيرة من العلماء والصالحين في كل زمان ومكان مقتدين بأفضل الخلق صلى الله عليه وسلم.

---

[1] ـ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤٢٠ هـ، ٢٥٩/٢٣.

المطلب الثالث: الخشوع سنة كونية:

وحسب ما ورد في القرآن فإن الخشوع قد يكون وصفا يعبر عن حالة مشتركة بين كل الكائنات: فهناك صفات مشتركة بين جميع الكائنات تدل على وحدة الصانع، وعلى الاتحاد في بعض الصفات بين جميع مكونات هذا العالم؛ مثل الخشوع الذي عبر به القرآن عن حالة الأرض؛ وكونها تتصف به؛ ويعبر عن حالة من الهدوء والتواضع بسبب الجفاف تقابل الاهتزاز والترفع بفعل الأمطار؛ مما يشبه ما ينتاب البشر في بعض الأحيان من صفات؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فصلت: ٣٩.

فاليبوسة والجدب الذي يصيب الأرض عبر القرآن عنه بالخشوع الذي يحدث للقلوب فينتج عنه اطمئنان وسكون وخضوع؛ بينما عبر عن النبات بالاهتزاز والربو الذي يشبه حركة الأحياء وتفاعلهم مع ما حولهم؛ قال الشوكاني: وَالْخَاشِعَةُ: الْيَابِسَةُ الْجَدْبَةُ. وَقِيلَ: الْغَبْرَاءُ الَّتِي لَا تَنْبُتُ. قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: إذَا يَبِسَتِ الْأَرْضُ وَلَمْ تُمْطَرْ قِيلَ: قَدْ خَشَعَتْ فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ أَيْ: مَاءَ الْمَطَرِ، وَمَعْنَى اهْتَزَّتْ: تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ، يُقَالُ اهْتَزَّ الْإِنْسَانُ: إذَا تَحَرَّكَ"[1].

وقد رتب القرآن على هذا المشهد المهيب نتيجة واضحة تدل على وحدة الصانع لهذا الكون وقدرته على البعث والنشور، وتفرده بذلك؛ قال ابن عاشور: " وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِهَذَا الصُّنْعِ الْعَظِيمِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى مُنْفَرِدٌ بِفِعْلِهِ فَهُوَ دَلِيلُ إِلَهِيَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يَفْعَلُهُ غَيْرُهُ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَتَعَدَّدَ لِكَوْنِ مَنْ لَا يَفْعَلُ مِثْلَ فِعْلِهِ نَاقِصَ الْقُدْرَةِ، وَالنَّقْصُ يُنَافِي الْإِلَهِيَّةَ كَمَا قَالَ: "أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ" [النَّحْل][2].

---

[1] ـ فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، بيروت
الطبعة: الأولى ـ ١٤١٤ هـ، ٥٩٤/٤.

[2] ـ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ٣٠٢/٢٤.

وكذلك خشوع الجبال التي هي من أعظم المخلوقات وأكثرها صلابة وقوة فإنها تخشع وتتصدع أمام القرآن لو نزل عليها ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ الحشر: ٢١.وهذه صورة في غاية الروعة جلاها المولى عز وجل في هذا الكتاب العظيم؛ "حيث ذَكَرَ تَعْظِيمَ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، وَأَخْبَرَ عَنْ جَلَالَتِهِ، وَأَنَّهُ حَقِيقٌ بِأَنْ تَخْشَعَ لَهُ الْقُلُوبُ، وَتَرِقَّ لَهُ الْأَفْئِدَةُ، فَقَالَ: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أَيْ: مِنْ شَأْنِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَجَوْدَةِ أَلْفَاظِهِ، وَقُوَّةِ مَبَانِيهِ، وَبَلَاغَتِهِ، وَاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَوَاعِظِ الَّتِي تَلِينُ لَهَا الْقُلُوبُ أَنَّهُ لَوْ أُنْزِلَ عَلَى جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ الْكَائِنَةِ فِي الْأَرْضِ لَرَأَيْتَهُ مَعَ كَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْقَسْوَةِ وَشِدَّةِ الصَّلَابَةِ وَضَخَامَةِ الْجِرْمِ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا، أَيْ: مُتَشَقِّقًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَذَرًا مِنْ عِقَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ لَا يُؤَدِّي مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ كَلَامِ اللَّهِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ وَتَخْيِيلٌ يَقْتَضِي عُلُوَّ شَأْنِ الْقُرْآنِ وَقُوَّةَ تَأْثِيرِهِ فِي الْقُلُوبِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلِهِ: وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِمُ التَّفَكُّرُ فِيهِ لِيَتَّعِظُوا بِالْمَوَاعِظِ وَيَنْزَجِرُوا بِالزَّوَاجِرِ، وَفِيهِ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ لِلْكُفَّارِ حَيْثُ لَمْ يَخْشَعُوا لِلْقُرْآنِ، وَلَا اتَّعَظُوا بِمَوَاعِظِهِ، وَلَا انْزَجَرُوا بِزَوَاجِرِهِ، وَالْخَاشِعُ: الذَّلِيلُ الْمُتَوَاضِعُ"[1].

وقد عبر الشوكاني عن المغزى من هذه الصورة البيانية الرائعة باعتبارها تجلي خطورة ما تتصف به بعض القلوب من القساوة متجاوزة الجبال الرواسي؛ وذلك حيث يقول: فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنْ سِيَاقِ هَذَا الْكَلَامِ هُوَ التَّصْرِيحُ بِأَنَّ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ بَلَغَتْ فِي الْقَسْوَةِ وَفَرْطِ الْيُبْسِ الْمُوجِبَيْنِ لِعَدَمِ قَبُولِ الْحَقِّ وَالتَّأَثُّرِ لِلْمَوَاعِظِ إِلَى مَكَانٍ لَمْ تَبْلُغْ إِلَيْهِ الْحِجَارَةُ، الَّتِي هِيَ أَشَدُّ الْأَجْسَامِ صَلَابَةً وَأَعْظَمُهَا صَلَادَةً، فَإِنَّهَا ترجع إلى نوع من اللين، وهي تَفَجُّرُهَا بِالْمَاءِ وَتَشَقُّقُهَا عَنْهُ وَقَبُولُهَا لِمَا تُوجِبُهُ الْخَشْيَةُ لِلَّهِ مِنَ الْخُشُوعِ وَالِانْقِيَادِ بِخِلَافِ تِلْكَ الْقُلُوبِ. وَفِي قَوْلِهِ: وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ مِنَ التَّهْدِيدِ وَتَشْدِيدِ الْوَعِيدِ مَا لَا يَخْفَى"[2].

---

[1]- فتح القدير: ٥/٢٤٦.

[2] - فتح القدير: ١/١١٩.

وبذلك يمكن القول إن الخشوع في القرآن الكريم يعبر عن وصف مشترك بين كل الكائنات يطلق على جميع أصنافها؛ فقد عبَّر به القرآن عن حالة الأرض وما ينتابها من ظواهر طبيعية على اتساعها، وكثرة ما عليها من حيوانات ونباتات ومياه .... كما عبر به عن حالة قد تنتاب الجبال على ما بها من قوة وصلابة وامتداد جغرافي قد يتجاوز قارات، وعمق يصل أعماق الأرض، وقيعان المحيطات ...

المبحث الثاني

دلالات الخشوع وموارده في القرآن الكريم

يشمل هذا القسم ما ورد ذكره في القرآن الكريم من تعبير عن الخشوع في موضوعات يمكن اعتبارها أمهات المسائل التعبدية والأخلاقية والعقدية، كون الخشوع عماد الصلاة؛ وهو ضمان استثمارها في حياة البشر امتثالا للمعروف واجتنابا للمنكر، وشعورا برقابة الخالق في الحياة. وكذلك التعبير به عن الالتحاق بصوف المؤمنين والاتصاف بصفاتهم يعطيه بعدًا أخلاقيا هاما، وذكره في مواطن القيامة يشعر بضرورة الإيمان بالغيب والاستعداد لليوم الآخر؛ كما سيأتي: في المطالب التالية:

المطلب الأول: الصيغ اللغوية للخشوع في القرآن ودلالاتها

يمكن تقسيم الصيغ التي ورد بها الخشوع في هذه المواطن إلى أربع:

الأول: اسم الفاعل والصفة المشبهة به: (خاشعا) (خاشعة) (خاشعين) (خاشعات) (خشعا) وهي صيغ تدل على الحال والاستقبال والملازمة؛ وهي أكثر الصيغ ورودا في القرآن الكريم.

الثاني: الفعل الماضي: (خشعت) وهو مؤذن بتحقق وقوع الأمر.

الثالث: الفعل المضارع المقرون بأن في سياق يدل على الاستبطاء؛ وهو استنكار ضمني لحالة عدم خشوع القلوب (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله). وفيه تهديد ضمني للغافلة قلوبهم عن تدبر ذكر الله تعالى، وما نزل من القرآن العظيم.

مما يدل على أن ما تضمنته هذه الآيات من الوعيد متحقق الوقوع، وأنه شامل للحال والمستقبل الذي يصف واقع أهل النار؛ فحالهم في أسوإ ما يكون من الخوف، ولا أمل لهم في انقطاعه أو فتوره؛ وهو غير مقيد بل هو مطلق؛ فهو شامل لا حدود له؛ كما أكد القرآن على أن الاتصاف بالخشوع مطلب شرعي، وليس مجرد اختيار بدليل الصيغة الأخيرة.

ويمكن عرض صيغ الخشوع في السياقات القرآنية في الآيات التالية حسب كثرة ورودها:

ـ أولا- خاشعة:

١ـ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فصلت: ٣٩

ـ لقد ورد في الآية إسناد الخشوع إلى الأرض جراء ما أصابها من قحط جعلها في سكون ولزوم حالة واحدة بسبب الجفاف، كما بينت الآية ما اعتراها بعد ذلك من تغير الحال بنزول الغيث، وما صاحبه من حركة النبات؛ وقد ربطت خاتمة الآية بين ذلك التغير المشاهد بالعين المجردة كل عام تقريبا وبين إعادة الحياة إلى البشر بعد الموت؛ وذلك لبيان قدرة الخالق على إعادة الحياة للكائنات بعد موتها في عالم البعث الغيبي.

٢ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ القلم: ٤٢ ـ ٤٣

وقد ورد في الآية إسناد الخشوع إلى الوجوه في عرصات القيامة تجسيدا للحالة النفسية البائسة لأهل النار، وما أصابهم من ندم على تفريطهم في السجود في الدنيا؛ وتضييعهم لفرصة السجود الذي أمروا به؛ مما يدل على أهمية الانصياع لأوامر الله، بما فيها من أعمال صالحة تجمع مصالح البشر في الدنيا والآخرة.

ونشبة الخشوع إلى الأبصار بدل القلوب التي هي محلها الأصلي تحمل دلالة خاصة؛ قال الشوكاني: "وَنِسْبَةُ الْخُشُوعِ إلَى الْأَبْصَارِ، وَهُوَ الْخُضُوعُ وَالذِّلَّةُ لِظُهُورِ أَثَرِهِ فِيهَا تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أَيْ: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ شَدِيدَةٌ وَحَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ"[١].

والخشوع هنا ليس اختياريا وإنما هو مستوى من الإذلال؛ فهو: الذِّلَّةُ وَالْخُضُوعُ، أَيْ: لَا يَرْفَعُونَهَا لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أَيْ: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ شَدِيدَةٌ"[٢].

---

[١] ـ تفسير الشوكاني: ٣٢٩/٥

[٢] ـ تفسير الشوكاني: ٣٥٤/٥

٣ـ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المعارج: ٤٣ ـ ٤٤

ـ وهذه الآية تسير في نسق التي قبلها بإسناد الخشوع إلى الأبصار في عرصات القيامة؛ وإذا كانت الآية السابقة ركزت على تذكير المخالفين بسبب خشوعهم المذل بلفت انتباههم إلى ما أسلفوا من مخالفة الأوامر في الدنيا فإن هذه الآية ركزت على سبب آخر وهو إهمالهم للموعودات الغيبية والتي منها هذا الموقف الخطير؛ مما أوردهم الهلاك الدائم؛ ولذلك جاءت الأداة في الآية؛ ف"الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ذلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ: الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ أَيِ: الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ قَدْ حَاقَ بِهِمْ وَحَضَرَ، وَوَقَعَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِهِ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَقْبَلًا، فَهُوَ فِي حُكْمِ الَّذِي قَدْ وَقَعَ لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ "[1].

٤ـ قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾ الغاشية: ١ ـ ٤

فهذه الآيات تتنزل في سياق ما قبلها من إسناد الخشوع إلى الوجوه وهي أعم من الأبصار المذكورة في الآيات السابقة، والوجه هو أشرف ما في الإنسان، وخشوعه في عرصات القيامة، من شدة الهول الموقف، يحمل دلالات كافية على مستوى الهول وشدة الصدمة؛ وقد صدرت الآيات بصيغة تدل على التهويل بالاستفهام الدال على لفت الانتباه إلى ما سيأتي بعده من أوصاف مخيفة تعبر عن هول ذلك الموقف؛ وتنذر المخالفين بذلك الوعيد الشديد الذي عبرت عنه الآيات وبالخشوع الذي ينتاب الوجوه لهول ما ترى.

ثانيا: خاشعين:

٥ ـ ٢ـ قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ البقرة: ٤٣ ـ ٤٦

---

[1] ـ المصدر السابق: ٥/٣٥٤

- في الآيات إسناد الخشوع إلى المصلين باعتباره روح الصلاة التي أمر الله بالاستعانة بها في سياق الحديث عن ركنين من أركان الإسلام جاءا متلازمين في كثير من المواطن القرآنية هما الصلاة والزكاة، مع ذكر ظاهرة اجتماعية متفشية بين كثير من الناس، يترتب عليها كثير من المفاسد؛ وهي مخالفة قول الآمر بالبر لفعله؛ وقد حثت الآيات على الاستعانة بالصبر والصلاة، وبينت أنها كبيرة إلا الخاشعين؛ وختمت بعريف الخاشعين.

٦ -٢ - قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۜ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٦ - ١٩٩

وصفت الآية المتقين بالخشوع لرب العالمين وعدم التنازل عن آيات الله مقابل أي عرض زائل وبينت أن جزاءهم عند رب العالمين؛ وهذا مقام مدح.

٧ -٢ - قال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٩ - ٩٠

وصف القرآن الأنبياء باللجوء إلى الله وهو أمر مطلوب من كل مسلم، وبعد أن ذكر في هاتين الآيتين استجابته لدعاء يحيى وإصلاحه له زوجه، وقبله استجاب ليونس وأيوب ختم بالثناء عليهم وبوصفهم بالخاشعين وهي صيغة تفيد استمرارهم ودواهم على الخشوع حتى صار سجية لهم. وهو أمر يدل على أهمية الخشوع والدوام عليه لمن أراد أن يتشبه بالأنبياء حتى يقبل الله عبادته ويستجيب دعاءه.

٨- ٢ - ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٥

في هذه الآيات سرد لمجموعة من الخصال الحميدة التي وصف الله بها خيرة عباده، وبدأها بالإيمان الذي هو شرط في كل الأعمال الصالحية، وجعل الخشوع واسطة عقدها، وختمها بالصدقة التي هي من أهم أعمال البر؛ ولم يكتف القرآن باسم الجنس، كما يعبر به عن الجنسين في مواطن أخرى؛ بل صحب كل صفة بثنائية الذكورة والأنوثة دلالة على أهمية اكتساب هذه الصفات للجنسين، وعبر باسم الفاعل لتأكيد الملازمة والدوام.

٩ -٢ - ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ الشورى: ٤٤ - ٤٥

فقد بينت الآيتان مصير الظالمين عندما يتملكهم الندم ويرون عاقبة الخسران المعبر عنه بخشوعهم المذل ونظراتهم التائهة، وختمت الآية بتحديد مفهوم الخسارة وهو خسارة أقرب الناس يوم لا ينفع الندم، ولا يمكن تلافي الخسارة.

ثالثا: خاشعا:

١٠-٣- قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشر: ٢١

وهنا جاء اسناد الخشوع إلى الجبال؛ فهذه الآية تجلي حالة تفاعلها مع القرآن لو نزل عليها، وهذا التعبير يسهم في تقريب الصورة لخطورة القسوة المعنوية لقلوب بني آدم، والتي هي أضعف بنية وأقل تحملا؛ فهي أحرى بالذوبان والخشوع والإذعان للقرآن؛ وفي السياق الذي تعبر عنه خاتمة الآية بيان لما تنطوي عليه أساليب القرآن من أمثال تخاطب العقول السليمة؛ لعلها تمعن النظر في أهمية تدبر القرآن، وتستشعر خطورة الغفلة عنه.

رابعا: خشعا أبصارهم:

١١ـ ٤ ـ قال تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾ القمر: ٧ ـ ٨

وفي السياق ذاته يأتي إسناد الخشوع إلى الأبصار عند البعث من القبور؛ وهو من أحداث الغيب المستقبلي، لكنه جاء بصيغة الجمع؛ (خُشَّعاً جَمْعُ خَاشِعٍ)[1] وأبانت الآية عن مرحلة من مراحل القيامة هي مرحلة البعث والخروج من القبور؛ مشيرة إلى موقف من المواقف العصيبة يعطي حقيقة مشهد يظهر ضعف البشر وكيفية بعثهم في حالة مخيفة؛ قال الإمام الشوكاني: "وَانْتِصَابُ «خُشَّعًا» عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلِ «يَخْرُجُونَ» ، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «عَنْهُمْ» ، وَالْخُشُوعُ فِي الْبَصَرِ الْخُضُوعُ وَالذِّلَّةُ، وَأَضَافَ الْخُشُوعَ إِلَى الْأَبْصَارِ لِأَنَّ الْعِزَّ وَالذُّلَّ يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ أَيْ: يَخْرُجُونَ مِنَ الْقُبُورِ، وَوَاحِدُ الْأَجْدَاثِ: جَدَثٌ، وَهُوَ الْقَبْرُ، كَأَنَّهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ وَاخْتِلَاطِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ، أَيْ: مُنْبَثٌّ فِي الْأَقْطَارِ، مُخْتَلِطٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ"[2].

خامسا: خشعت الأصوات:

١٢ـ ٥ ـ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨ ﴾ طه: ١٠٢ ـ ١٠٨

لقد صورت الآيات مشاهد مخيفة ليوم القيامة تبدأ بالنفخ في الصور فيظهر مصير المجرمين الخطير وسط نسف الجبال واستواء الأرض واختفاء كل مظاهر الحياة العادية، وتغير نظام الكون عندها تخشع المخلوقات، وتختفي الأصوات المعبرة عادة ليحل محلها الصمت الرهيب من هول الموقف؛ فلا تسمع إلا همسا.

---

[1] ـ فتح القدير: ١٤٧/٥.

[2] ـ فتح القدير: ١٤٧/٥.

سادسا- أن تخشع قلوبهم:

١٣- ٦- قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ الحديد: ١٦

وفي هذه الآية جاء التعبير القرآني مفعما بالعتاب الذي يعبر عنه أسلوب الاستبطاء؛ مما يدل على أهمية الموضوع، وهو يحمل حضا قويا على الخشوع، ودليلا واضحا على الإنسان مزود بقدرات تمكنه من أن يخشع إذا أراد ذلك، وقد عبر عنه القرآن هنا صراحة بإسناده إلى موطنه الأصلي الذي هو القلب، عوضا عن إسناده إلى أعضاء أخرى ...؛ لأنه إذا خشع تبعته سائر الأعضاء.

المطلب الثاني: الخشوع في القرآن روح الصلاة

والخشوع من أسباب التلذذ بالصلاة مما يجعلها محبوبة ليست مجرد تكليف يؤدى بل يستلذ بأدائها لا يستثقلها بخلاف غير الخاشع.

لم يعط القرآن حيزا كبيرا للحديث عن تفاصيل العبادات بقدر ما أعطى مساحة كبرى لتفاصيل كثيرة تتعلق بعالم الغيب وما فيه من حياة عظيمة؛ لكنه أشار إشارات ذات دلالة إلى بعض القضايا المتعلقة بتلك الأحكام؛ ولعل في ذلك تلميحا إلى أنها هي لب العبادة ذاتها؛ وفي تفاصيل الحديث القرآني عن عظيم مخلوقات الله بما فيها الجنة والنار وما فيهما من أمور عظام تجعل الولدان شيبا ما يكفي للدلالة على أهمية الخشوع والخضوع لهذا الرب العظيم؛ بيد أنه لم يكتف بذلك بل صرح بضرورة الخضوع له في مواطن لافتة تستحق التوقف عندها في هذا البحث المقتضب. فقال تعالى: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، (البقرة: ٤٥). والظن هنا بمعنى اليقين. [1].

والخشوع روح الصلاة، وأساس لتحصيل أجرها؛ فنسبة ما يكتب مهنا تساوي نسبة ما يوجد منه فيها؛ وتركه سوء أدب مع الخالق؛ يقول النووي في فتاويه: "فإن روح الصلاة الخشوع فيها، وحضور القلب وتدبر القراءة، وفهم معانيها، واستشعار الخضوع والتواضع لله، فالحاضر الخاشع في جميع صلاته تكتب له صلاته كلها والغافل اللاهي لا يُكتب له شيء منها. ولله در القائل:

تصلي بلا قلب صلاةً بمثلها ... يكون الفتى مستوجبًا للعقوبة
تظلُّ وقد أتممتها غيرَ عالمٍ ... تزيد احتياطًا ركعةً بعدَ ركعةِ
فويلك تَدري مَنْ تناجيه مُعْرِضًا ... وبين يديْ مَنْ تنحني غيرَ مخبت
تخاطبه إياك نعبدُ مقبلًا ... على غيره فيها لغير ضرورة

---

[1] ـ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة ـ ١٤١٩ هـ، ١٠٣/١.

ولو رَدّ مَنْ ناجاك للغير طرْفَه ... تميزتَ من غيظٍ عليه وغيرةِ

أما تستحي من مالك الملك أن يرى ... صدودَك عنه يا قليلَ المروءةِ

إلهي اهدنا فيمن هديتَ وخُذْ بنا ... إلى الحق نهجًا في سواء الطريقة[1].

والخشوع في الصلاة يتطلب تأمل ما فيها من معان باطمئنان القلب إلى ما يقرأ فيها من القرآن، وما فيها من ذكر وتسبيح ...: يقول الشعراوي في تفسيره: "والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً في مهمته هذه، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه، وما دام في حضرة ربه عَزَّ وَجَلَّ فلا ينبغي أن ينشغل بسواه، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول: إن الذي يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره في الصف تبطل صلاته [2].

وقد اعتبرت بنت الشاطئ في تفسيرها أن قمة الخشوع تكون في مواضع السجود باعتباره أقرب إلى معاني التذلل والخضوع؛ حيث قالت: " وأخذ السجود دلالته الاصطلاحية على السجدة في الصلاة يتدرج فيها العابد من الوقوف بين يدي الله إلى الركوع، ثم يكون السجود غاية الخشوع. ولعل تسمية دور العبادة الإسلامية بالمساجد، ملحوظ فيما ما في السجود من غاية الخشوع. وأختص البيت العتيق باسم المسجد الحرام، إذ كان أول بيت عُبد فيه الله، وقد جاء بهذا الاسم في خمس عشرة آية من القرآن الكريم..... ومعه المسجد الأقصى في آية الإسراء. وتخصيص السجود بالذكر في آية العلق، يقبل تأويله بالسجود في الصلاة كما ذهب بعض المفسرين، مع احتفاظه بدلالته الأصلية على غاية الخشوع، استئناساً بما في القرآن الكريم من آيات تخص السجود بالذكر في وصف عباد الله القانتين:{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} (الفتح ٢٩) {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}

---

[1]- فَتَّاوَى الإمامِ النَّوَوِي المُسمَّاةِ: "بالمَسَائِل المنْثورَةِ"، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، ترتيبُ: تلميذه الشيخ عَلَاء الدِّين بن العَطّار، تحقِيق وتعلِيق: محمَّد الحجَّار، الناشر: دَارُ البشائرِ الإسلاميَّة للطبَاعَة وَالنشرَ والتوزيع، بَيروت – لبنان، الطبعة: السَادسَة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ص: ٥٢.

[2]- تفسير الشعراوي: ٥٩٥٥/١٠

(الزمر ٩) {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} (الإسراء ١٠٧){.....إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}(مريم ٥٨)"[١].

وقد علق "الرازي" على قوله تعالى: "إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ" من سورة العصر ـ في أحد تفسيري الآية ـ بما يفيد كون ارتباط الخسارة منوط بمستوى ضعف الخشوع في الأعمال؛ مؤكدا "أن الإنسان لا ينفك عن خسر" لأن الخسر تضييع رأس المال، ورأس ماله عمره: إن أنفقه في المعصية فلا شك في الخسران، وإن أنفقه في المباحات فالخسران أيضاً حاصل لأنه كان متمكناً أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائماً، وإن أنفقه في الطاعات فلا طاعة إلا يمكن الإتيان بها على وجه أحسن لأن مراتب الخشوع غير متناهية، كما أن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية"[٢].

وفي هذا دليل على اقتران الصلاة بمعان تسهم في مستوى تحسين حياة البشر بما في ذلك من نشر قيم التفاهم والتسامح، وما يتطلبه ذلك من الصبر، وأن حياة الناس ينبغي أن تكون مرتبطة بأعمال البر حتى ينجو صاحبها من الخسارة، واشتراط الخشوع للصلاة التي تستجيب لذلك الحجم من المسؤولية؛ ولذلك فالخشوع عامل في تفعيل مكانة الصلاة في الإصلاح الاجتماعي؛ والصلاة المصحوبة بالخشوع هي التي يمكن أن تسهم في الامتناع عن المخالفات والانسجام مع قيم المجتمع الأخلاقية الفاضلة.

الخشوع ذو صلة بالقنوت المأمور به في الصلاة؛ قال الشعراوي في تعليقه على قول الله تعالى: "قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ البقرة: ٢٣٨

أي على الصلوات الخمس بصفة عامة وكل صلاة تنفرد بصفة خاصة. ويريد الحق سبحانه أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون، والأمر الواضح هو {وَقُومُواْ للَّهِ قَانِتِينَ} وأصل القنوات في اللغة هو المداومة على الشيء، وقد حضر وحث القرآن الكريم على

---

[١] ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، المؤلف: عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت ١٤١٩هـ)، دار النشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السابعة؛ ٣٤/٢،

[٢] ـ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤٢٠ هـ، ٢٨٠/١٢

ديمومة طاعة الله ولزوم الخشوع والخضوع، ونرى ذلك في قول الحق الكريم: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اليل سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب} [الزمر: ٩].

إن الحق سبحانه يبلغ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليبلغنا نحن المسلمين المؤمنين برسالته أن نقارن بين الذي يخشع لله في أثناء الليل فيقضيه قائماً وساجداً يرجو رحمة ربه، وبين الذي يدعو ربه في الضراء وينساه في السراء، هل يستوي الذين يعلمون حقوق الله فيطيعوه ويوحدوه والذين لا يعلمون فيتركوا النظر والتبصر في أدلة قدرات"[1].

المطلب الثالث: الخشوع شرط في الفلاح وتحقيق صفات المؤمنين:

لقد أكد القرآن على أهمية الخشوع في الصلاة؛ فجاء به على رأس صفات أقرب الناس من رب العالمين وهم أهل الإيمان، وأسند الفلاح إلى أهله؛ فقال تعالى:" قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ" (٢- ٧) (المؤمنون).

وهذا السياق أكبر دليل على أهمية الخشوع، وكونه مؤشرا على الانخراط في جماعة المؤمنين، والتي تحمل مفاهيم اجتماعية وأخلاقية لا غنى عن المجتمع الصالح لها.

ولذلك صرح ابن القيم أن من فاته الخشوع في الصلاة لم يكن من المفلحين، كما ربط مستوى خضوع الأعضاء في الصلاة بمستوى الخشوع الذي بدونه تصبح الصلاة مجرد حركات عبثية؛ حيث قال ـ رحمه الله ـ: "وقد علَّق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلِّي في صلاته، فمن فاته خشوع الصَّلاة لم يكن من أهل الفلاح. ويستحيل حصول الخشوع مع العَجَلة والنَّقر قطعًا، بل لا يحصل الخشوع قطُّ إلَّا مع الطُّمأنينة، وكُلَّما زاد طمأنينةً ازداد خشوعًا، وكُلَّما قَلَّ خشوعُه اشتدَّت عَجَلَتُه حتى تصير حركة بدنه بمنزلة العَبَث، الذي لا يصحبُهُ خشوعٌ ولا إقبالٌ على العبوديَّة، ولا معرفة حقيقة العبوديَّة. والله سبحانه

[1]ـ تفسير الشعراوي: ١٠٢٥/٢.

قد قال: {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [البقرة/٤٣]، وقال: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} [المائدة/٥٥]، وقال: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} [هود/١١٤]، وقال: {فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [النِّساء/١٠٣]، وقال: {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ} [النِّساء/١٦٢]. وقال إبراهيم عليه السلام: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ} [إبراهيم/٤٠]، وقال لموسى: {فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه/١٤]. فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضعٍ من التَّنزيل إلَّا مقرونًا بإقامتها"[١].

علاوة على أن القرآن جعل الخشوع من صفات المؤمنين؛ بل جعله واسطة العقد فيها؛ حيث قال تعالى: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ ..." (الأحزاب: ٣٥)؛ قال الإمام الرازي معلقا على أهمية قوله تعالى: "وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ" بعد ما جاء قبلها من الصفات الحسنة: "... نَقُولُ لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْحَسَنَاتِ أَشَارَ إِلَى مَا يَمْنَعُ مِنْهَا وَهُوَ إِمَّا حُبُّ الْجَاهِ أَوْ حُبُّ الْمَالِ مِنَ الْأُمُورِ الْخَارِجِيَّةِ أَوِ الشَّهْوَةُ مِنَ الْأُمُورِ الدَّاخِلَةِ، وَالْغَضَبُ مِنْهُمَا يَكُونُ لِأَنَّهُ يَكُونُ بِسَبَبِ نَقْصِ جَاهٍ أَوْ فَوْتِ مَالٍ أَوْ مَنْعٍ مِنْ أَمْرٍ مَشْتَهًى فَقَوْلُهُ: وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ أَيِ الْمُتَوَاضِعِينَ الَّذِينَ لَا يُمِيلُهُمُ الْجَاهُ عَنِ الْعِبَادَةِ"[٢].

وقد بين الشوكاني "أهمية ما تضمنته الآية من صفات وما يترتب عليها من أجور باعتبار الخبر الذي جاء بعدها؛ حيث قال: " وَالْخَبَرُ لِجَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ: هُوَ قَوْلُهُ: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً أَيْ: مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَذْنَبُوهَا، وَأَجْرًا عَظِيمًا عَلَى طَاعَاتِهِمُ الَّتِي فَعَلُوهَا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْقُنُوتِ، وَالصِّدْقِ، وَالصَّبْرِ، وَالْخُشُوعِ، وَالتَّصَدُّقِ،

---

[١]- كتاب الصلاة، ضمن (آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، المحقق: عدنان بن صفاخان البخاري، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - محمد أجمل الإصلاحي - علي بن محمد العمران، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، ص: ٣٤٠

[٢] - مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ، ١٦٩/٢٥

وَالصَّوْمِ، وَالْعَفَافِ، وَالذِّكْرِ، وَوَصْفُ الْأَجْرِ بِالْعِظَمِ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ بَالِغٌ غَايَةَ الْمَبَالِغِ، وَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْ أَجْرٍ هُوَ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَنْفَدُ"([1])

لذلك يمكن ان نقول عن القرآن جعل الخشوع من أهم الصفات التي تميز خيرة البشر؛ ولذلك ختم بها الحديث عن الأنبياء بعد تبيان الكثير من مواقفهم العظيمة وعلاقتهم بالله؛ حيث قال: "كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ" (الأنبياء: ٩٠).

الربط بين الفلاح والخشوع قد أفلح المؤمنون... خاشعون فالخشوع يعني التركيز والتركيز من أسباب النجاح في جميع المجالات في طلب العلم وأدائه وفي كل عمل يوكل به الإنسان، فالخشوع يقوي تركيزنا لأنه تدريب عليه وتمرّسٌ.

المطلب الرابع: الخشوع في مشاهد القيامة:

عندما نتأمل أساليب القرآن نجدها مليئة بالصور المعبرة؛ التي تجعلك تعيش أجواء الحدث، وكأنك ترى بأم عينك ما يقع فيه؛ وقد نقل القرآن صورة من مشاهد القيامة عبر التعبير بالخشوع لتبيان هول المواقف التي تنتظر المخالفين للنظام الكوني المبني على العدالة والرحمة والالتزام بالسلوك السليم تجاه النفس وتجاه الناس أجمعين، وذلك لتنمية روح الابتعاد عن الظلم والتعدي على الحقوق؛ مهما كانت المبررات؛ ولذلك نقل القرآن هذه الصورة المخيفة في ذلك اليوم المهيب؛ فقال جل وعلا: "وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (الشورى: ٤٥). ، وقد أسند القرآن الخشوع إلى الأبصار مبالغة في التنكيل، و الإذلال: قال الشوكاني: "وَالْخُشُوعُ فِي الْبَصَرِ الْخُضُوعُ وَالذِّلَّةُ، وَأَضَافَ الْخُشُوعَ إلَى الْأَبْصَارِ لِأَنَّ الْعِزَّ وَالذُّلَّ يَتَبَيَّنُ فِيهَا"([2]) ؛ ولاشك أن هذا الوصف ينبئ عن أقصى درجات الذل والخوف؛ جاء ذلك

---

[1] ـ فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٤١٤ هـ، ٣٢٥/٤

[2] ـ فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٤١٤ هـ: ١٤٧/٥.

معبرا عنه بلفظ الخشوع المصاحب لوصف ما سيقع للأبصار التي يعطي لمحها تفاعلا مع المشهد انطباعا عن هول الحالة النفسية السيئة؛ كما عبر عن ذلك ابن عاشور ـ رحمه الله ـ متسلحا بما يعضض ذلك من أشعار العرب، وما تعطيه المعاني النحوية والدلالات اللغوية والإشارات من معان تستحق الوقوف عندها في هذا الموضع، بقوله: "خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ(القمر:٧)، وَقَوْلِهِ: وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً فِي (طه: ١٠٨) وَالْمُرَادُ بِالْخُشُوعِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَبْدُو عَلَيْهِمْ مِنْ أَثَرِ الْمَذَلَّةِ وَالْمَخَافَةِ. فَقَوْلُهُ: مِنَ الذُّلِّ مُتَعَلِّقٌ بِ خاشِعِينَ وَتَعَلُّقُهُ بِهِ يُغْنِي عَنْ تَعْلِيقِهِ بِ يَنْظُرُونَ وَيُفِيدُ مَا لَا يُفِيدُهُ تَعْلِيقُهُ بِهِ. ومِنَ لِلتَّعْلِيلِ، أَيْ خَاشِعِينَ خُشُوعًا نَاشِئًا عَنِ الذُّلِّ، أَيْ لَيْسَ خُشُوعُهُمْ لِتَعْظِيمِ اللَّهِ وَالِاعْتِرَافِ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الِاعْتِقَادَ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِمْ فِي الدُّنْيَا. وَجُمْلَةُ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ خاشِعِينَ لِأَنَّ النَّظَرَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ حَالَةٌ لِلْخَاشِعِ الذَّلِيلِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِهَا تَصْوِيرُ حَالَتِهِمُ الْفَظِيعَةِ. وَفِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّابِغَةِ يَصِفُ سَبَايَا:

يَنْظُرْنَ شَزْرًا إِلَى مَنْ جَاءَ عَنْ عُرُضٍ ... بِأَوْجُهٍ مُنْكِرَاتِ الرِّقِّ أَحْرَارِ

وَقَوْلُ جَرِيرٍ: فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَالطَّرْفُ: أَصْلُهُ مَصْدَرٌ، وَهُوَ تَحْرِيكُ جَفْنِ الْعَيْنِ، يُقَالُ: طَرَفَ مِنْ بَابِ ضَرَبَ، أَيْ حَرَّكَ جَفْنَهُ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْعَيْنِ مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِفِعْلِهِ، وَلِذَلِكَ لَا يُثَنَّى وَلَا يُجْمَعُ قَالَ تَعَالَى: لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ [إِبْرَاهِيم: ٤٣] . وَوَصْفُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِ خَفِيٍّ يَقْتَضِي أَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ حَرَكَةُ الْعَيْنِ، أَيْ يَنْظُرُونَ نَظَرًا خَفِيًّا، أَيْ لَا حِدَّةَ لَهُ فَهُوَ كَمُسَارَقَةِ النَّظَرِ، وَذَلِكَ مِنْ هَوْلِ مَا يَرَوْنَهُ مِنَ الْعَذَابِ، فَهُمْ يُحْجِمُونَ عَنْ مُشَاهَدَتِهِ لِلرَّوْعِ الَّذِي يُصِيبُهُمْ مِنْهَا، وَيَبْعَثُهُمْ مَا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ حُبِّ الِاطِّلَاعِ عَلَى أَنْ يَتَطَلَّعُوا لِمَا يُسَاقُونَ إِلَيْهِ كَحَالِ الْهَارِبِ الْخَائِفِ مِمَّنْ يَتْبَعُهُ، فَتَرَاهُ يُمْعِنُ فِي الْجَرْيِ وَيَلْتَفِتُ وَرَاءَهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ لِيَنْظُرَ هَلِ

اقْتَرَبَ مِنْهُ الَّذِي يَجْرِي وَرَاءَهُ وَهُوَ فِي تِلْكَ الِالْتِفَاتَةِ أَفَاتَ خُطُوَاتٍ مِنْ جَرْيِهِ لَكِنَّ حُبَّ الِاطِّلَاعِ يُغَالِبُهُ" [1]

كما ورد في آية أخرى إسناد الخشوع إلى الأبصار مع تعدد القراءات في الآية لتشمل حالهم ومستقبلهم؛ قال ابن منظورو؛ وَقُرِئَ: خاشِعاً أَبصارُهم؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: نَصَبَ خَاشِعًا عَلَى الْحَالِ، الْمَعْنَى يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْداث خُشَّعاً، قَالَ: ومَن قرأَ خاشِعاً فَعَلَى أَنّ لَكَ فِي أَسماء الْفَاعِلِينَ إِذا تَقَدَّمَتْ عَلَى الْجَمَاعَةِ التَّوْحِيدَ نَحْوَ خاشِعاً أَبصارُهم، وَلَكَ التوحيدُ والتأْنِيثُ لتأْنِيث الجَماعةِ كَقَوْلِكَ خَاشِعَةً أَبصارهم، قَالَ: وَلَكَ الْجَمْعُ خُشَّعاً أَبصارُهم، تَقُولُ: مررتُ بشُبّان حَسَنٍ أَوْجُهُهم وحِسانٍ أَوجُههم وحسَنةٍ أَوجهُهم؛ وأَنشد:

وشَبابٍ حَسَنٍ أَوجُهُهُم، ... منْ إِيادِ بنِ نِزارِ بنِ مَعَدّ[2].

وبهذه الصورة المخيفة التي تمثل عاقبة حتمية للظالمين ينبغي أن ترتفع همم الناس إلى اتباع قيم التسامح والبعد عن أي عنف أو تعد على الآخرين؛ وتتضح معالم المستقبل الذي ينتظر العباد فتشرئب النفوس إلى فعل الخير، وتنمو قيم الإيثار وحب الخير للآخرين، وتتقلص مظاهر الظلم والعنف والشذوذ في الفكر والسلوك وسائر التصرفات خوفا من ذلك المصير المخوف.

---

[1] ـ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ١٢٧/٢٥.

[2] ـ لسان العرب، مادة "خشع" ٧١/٨.

المبحث الثالث

أسباب الخشوع وآثاره في بناء الشخصية المعتدلة

رأينا أن الخشوع ينطلق من القلب ثم يؤثر على سائر الأعضاء؛ مما يحوله إلى سلوك، وبما أنه يصبح سجية لصاحبه فإنه يسهم في صياغة حياته العامة بدءا بالعبادات ومرورا بالأخلاق والمعاشرات وانتهاء بالمعاملات؛ ولما لهذا القسم من أهمية خاصة فإننا سنعرض في بدايته بعضا من أسباب الخشوع علها تسهم في مساعدة من يريد الاتصاف بهذه الصفة التي مدح الله المتصفين بها من الأنبياء والمصلين والمؤمنين، كما سنشير إلى بعض ثماره؛ كي تتضح أهميته في نشر قيم التسامح والجنوح إلى الوسطية المنشودة في العبادات والأخلاق والمعاملات ...

المطلب الأول: أسباب الخشوع وأهميتها:

هناك وسائل بعضها معرفي وبعضها عملي تؤدي إلى تحقق الخشوع ونضج ثمرته السلمية المعتدلة؛ نلخصها من خلال النقاط التالية:

أولا: أسباب وجدانية: من المعروف أن مكمن الخشوع هو القلب؛ ولذلك فإن أهم أسبابه تتعلق بتربية القلوب وتزكية النفوس؛ ومن أهمها:

أ ـ استحضار العبد وقوفه بين يدي خالقه: فالله يأمر عباده بأن يخشوه ولا يخشوا غيره؛ يقول جل من قائل: "فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ"(المائدة:٤٤)؛ وقد أشرنا سابقا إلى أن منهج القرآن في عرضه للأحكام يكتفي بإشارات إليها؛ لكنه يفيض في تفصيل ما يتعلق بالآخرة والأمور الغيبية؛ خاصة الجنة ونعيمها من بساتين وأنهار وقصور وظلال وحسان وولدان وشهوات لا حدود لها؛ يقول الله عز وجل "لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (سورة الزمر: ٢٠)؛ ويقول جل جلاله: "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ لَا

يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلاّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً" سورة (١٧ ـ ٢٦) ويقول جل وعلا: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ" (محمد: ١٥)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة؛ وكذلك يفصل في النار وشدة حرها ومرارة شراب أهلها وحرارته، ولباسهم المقطع من النار، وانعدام الظلال فيها، إلى آخر ذلك من أنواع العذاب الأليم المستمر فيها فلا انقطاع له؛ قال تعالى: "فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيد كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (الحج:(١٩ ـ ٢٢)، وقال جل جلاله: "قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يَا عِبادِ فَاتَّقُونِ" الزمر:(١٥ ـ ١٦)، وقال جل وعلا: "وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ" (محمد ـ ١٥) وَقَالَ تعالى: "وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ..." (الكهف: ـ ٢٩) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، كما يعرض المولى جل جلاله مظاهر قوته التي لا حدود لها، ولا نظير لها جوا وبرا وبحرا؛ وفوق السماء وتحت الأرض، وبينهما ... يقول الله عز وجل: "اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (الرعد:(٢ـ ٤)، ويأمر الله جل جلاله عباده بالنظر فيها نظر اعتبار؛ "قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ" (يونس ـ١٠١)، كل ذلك لتمتلئ القوب بتعظيمه وتستحضر قوته وملوكته في سائر الطاعات وعلى رأسها أم العبادات؛ يقول الشعراوي

في تفسيره: "فحينما يقف العبد بين يدي الله. . لابد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء. ويدخل بدلا منه الخشوع والخضوع والذلة لله. والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذي يقف أمامه. إنما عدم إيمانهم بهذا النبي. والوقوف بين يدي الله للصلاة كما يجب أن تؤدى، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سماوات. إنما هو رفض للخضوع لأوامر الله"[1].

وبهذه الأحوال والصفات يحقق الشخص درجة من الشعور بالقرب من الله تمنعه من تجاوز الحدود الشرعية في تصرفاته؛ وتجعله يميل إلى أفعال الخير النافعة له أو لغيره، ويبتعد عن كل أعمال الشر المضرة به أو بغيره.

ب: البعد عن أمراض القلوب: والقلوب تمرض كما قال تعالى: "فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ" (البقرة: ١٠)، ومن المعروف أن القلوب هي محل نظر الخالق؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ .»[2]، وهي المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي القلب)[3]، لذلك كان لإصلاح القلب أعظم الأثر في حصول حقائق الأعمال؛ وخاصة الخشوع الذي يرتبط مباشرة بالقلب كما تفيد كل تعاريفه؛ قال ابن تيمية: " و " الخشوع " يتضمن معنيين:

---

[1] تفسير الشعراوي (الخواطر)، ٣٠٢/١.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم الحديث: ٢٥٦٤)، الجامع الصحيح «صحيح مسلم»، (طبعة مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة)، المؤلف: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، المحققون: أحمد بن رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري - محمد عزت بن عثمان الزعفران بوليوي - أبو نعمة الله محمد شكري بن حسن، الناشر: دار الطباعة العامرة – تركيا، عام النشر: ١٣٣٤ هـ، ثم صَوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى عام ١٤٣٣ هـ لدى دار طوق النجاة - بيروت، مع إثراء الهوامش بترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباق، ١١/٨، وأخرجه مسلم في صحيه، باب أخذ الحلال وترك الشبهات..

[3] أخرجه البخاري في صحيحه من حديث النعمان بن بشير، باب فضل من استبرأ ل\ينه، انظر: صحيح البخاري، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ٢٨/١.

أحدهما: التواضع والذل. والثاني: السكون والطمأنينة وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة؛ فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضا؛ ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا وهذا: التواضع والسكون"[1].

وذلك لأن القلب هو منبع الخشوع؛ قال ابن القيم: "وأجمع العارفون على أنّ الخشوع محلُّه القلب، وثمرته على الأعمال فهي تظهره"[2].

لذا فإن أمراض القلوب من العجب والرياء والكبر ... وغيرها كلها تحجب الخشوع، وتمنع ثماره على الجوارح.

وباتصاف الشخص به الصفة يكون سلوكه موزونا بميزان الأخلاق العالية؛ بحيث لا يرى لنفسه فضلا على غيره، ولا يتجاوز حدوده، بل يحترم الآخرين، ويخدمهم وينظر إليهم نظرة احترام لا ازدراء فيها ولا تطاول ولا إخلال في التعامل؛ ولذلك تضح هذه في هذه الصفات أهمية الخشوع في بناء الشخصية المتزنة والمعتدلة الوسطية المنشودة.

ج ـ خضوع القلب لما في اللسان وسائر الأعضاء من الأقوال ولأعمال: لأن القلب ينبغي أن يكون خاضعا لما يقول صاحبه وما يفعله حتى لا يكون الخشوع مظهرا فقط لا حقيقة له؛ والله وحده هو المطلع على ما في القلوب؛ يقول جل وعلا: "وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ" (المائدة:٧)، فلابد أن يكون ما في اللسان وسائر الأعضاء مرآة صافية لما في القلب؛ وهو ما عبر عنه ابن تيمية: ب " خشوع الجسد "، وقال إنه "تبع لخشوع القلب إذا لم يكن الرجل مرائيا يظهر ما ليس في قلبه كما روي: {تعوذوا بالله من خشوع النفاق} وهو أن يرى الجسد خاشعا والقلب خاليا لاهيا. فهو سبحانه استبطأ

---

[1] ـ مجموع الفتاوى، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ المدينة المنورة – السعودية، عام النشر: ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م، ٢٨/٧.

[2] ـ مدارج السالكين في منازل السائرين، [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٣١)]، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٥٩ ـ ٧٥١)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) ـ دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ ـ ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، ١٩٤/٢.

المؤمنين بقوله: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ}، (الحديد: ١٦)، فدعاهم إلى خشوع القلب لذكره، وما نزل من كتابه ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وهؤلاء هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا. وكذلك قال في الآية الأخرى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ}(الزمر: ٢٣). والذين يخشون ربهم هم الذين إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم. فإن قيل: فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب. قيل: نعم لكن الناس فيه على قسمين: " مقتصد " " وسابق " فالسابقون يختصون بالمستحبات والمقتصدون الأبرار: هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة ومن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء؛ فهو ظالم لنفسه. وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم {اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع}[1].

وهذا من أهم أسباب الخشوع؛ بل هو سبب وجود حقيقة الخشوع؛ فلا مجال لخشوع مظهري، لا ينسجم الجسم فيه مع حقيقة ما في القلب؛ وخطورة هذا النوع أنه لا يمكن للمخلوقات معرفة حقيقته، وصاحبه موكول لمن يعلم السر وأخفى.

وبتحقق الانسجام بين القلب والجوارح في الحقوق تغيب فيه ازدواجية الشخصية المذمومة في كل الأعراف، ويظهر الصدق في المواقف سواء أكانت عبادة أو معاملة أو سلوكا ... مما يزرع الثقة بين الناس، ويسهم في التعاون بين البشر؛ ويقضي على كثير من أسباب الخلاف والشقاق، ويعزز الأمن والسلم ...

ثانيا: أسباب عملية للخشوع:

إذا كانت الأسباب الوجدانية والروحية أساسا لا غنى عنه لبناء الخشوع في منبعه القلبي؛ بإصلاحه وتطهيره مما سوى الله، وتخليصه من أمراضه الفتاكة من عجب ورياء وسمعة ونفاق ... وجعل صاحبه أقرب إلى الخير وأبعد عن الشر مما يخدم السلم

---

[1]- فتاوى ابن تيمية: ٢٩/٧.

والتعايش في ظل الاحترام المتبادل، والتعامل المستند إلى التوسط والتوازن في الأمور ... فإن الوسائل العملية لا تقل أهمية عنها في تنمية الخشوع وربطه بغذاء القلب من ذكر وإخلاص وتحويل الخشوع إلى منهج للحياة؛ قائم على قاعدة لا إفراط ولا تفريط، علاوة على إخضاعه للضوابط الشرعية بتعلم العلوم الشرعية؛ ومن أهم تلك الوسائل:

لـ دوام ذكر الله تعالى والتأمل في مظاهر قدرته وتدبر كتابه: يأمر الله بدوام ذكره والإكثار منه؛ يقول تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً" الأحزاب (٤١- ٤٢)، وقال تعالى في شأن تأثير ذكره في القلوب: "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (سورة الرعد (٢٨) وقال تعالى في شأن تدبر كتابه وهو أعظم الذكر: "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها" (سورة محمد: ٢٤)؛ وفي الحديث: " خير العمل أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله "[1]، وكما عرفنا أن إصلاح القلب هو أهم وسيلة للخشوع فإن استخدام اللسان في ذكر الله والدوام عليه، واستعمال الفكر في التأمل في مظاهر صنعته عز وجل، كل ذلك من أهم محصلات الخشوع؛ يقول الشعراوي في تفسيره: "إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة في كل شيء. فذكر الله يوجد في القلوب الخشوع. ويقلل من المعاصي وينتفع الناس كل الناس به، ويجعل حركة الحياة مستقيمة" [2].

وقد علق الرازي في تفسيره على قوله تعالى: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم" بقوله: " وَإِنَّمَا قُدِّمَ الْخُشُوعُ بِالذِّكْرِ عَلَى الْخُشُوعِ بِمَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ

---

[1]- أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (٦ / ١١١ - ١١٢) والبغوي في " شرح السنة "، قلت: وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. ومتابعة معاوية بن صالح أخرجها أحمد؛ انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني [ت ١٤٢٠ هـ]، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى لمكتبة المعارف، عام النشر: جـ ١ - ٤: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، جـ ٦: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، جـ ٧: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م؛ ٤٥٢/٤.

[2] - تفسير الشعراوي – الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، (ليس على الكتاب الأصل - المطبوع - أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام ١٩٩٧ م)، ص:١/ ٢٨٩.

الْخُشُوعَ وَالْخَوْفَ وَالْخَشْيَةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا عِنْدَ ذِكْرِ اللَّه، فَأَمَّا حُصُولُهَا عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ فَذَاكَ لِأَجْلِ اشْتِمَالِ الْقُرْآنِ عَلَى ذِكْرِ اللَّه"[1].

وبذلك فإن هذا الجانب يمثل أهمية خاصة لصياغة الشخصية المستقيمة، عبر تدريبها عمليا على الأعمال التي تجعلها تلازم السلوك المستقيم؛ وتسهم في بنائها على أسس متينة مربوطة بمراقبة ذاتية تمنع صاحبها من أي انحراف في السلوك، وتجعله مستقيما في تصرفاته في نفسه وتجاه الآخرين؛ وتوفر على الدول كثيرا من أجهزة الرقابة والمتابعة، وتمنع أسباب وقوع كثير من المخالفات المتطرفة.

ب ـ تعلم العلم والعمل به؛ فلا بد للخشوع من التضلع من العلم المطابق للسلوك حتى يكون عمل صاحبه موافقا لما جاء في القرآن والسنة؛ وحتى يحقق صاحبه شروط القدوة المطلوبة من كل مسلم، وهي أن يكون انموذجا يحتذى به؛ يحتاط في أعماله ما لا يحتاط غيره؛ يقول الرازي نقلا عن القاضي عياض: "لَا شُبْهَةَ أَنَّ علم العالم يقتضي لطاعته من المنزلة مالا يحصل للمؤمن، ولذلك فإنه يقتدي بالعالم فِي كُلِّ أَفْعَالِهِ، وَلَا يُقْتَدَى بِغَيْرِ الْعَالِمِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ كَيْفِيَّةِ الِاحْتِرَازِ عَنِ الْحَرَامِ والشبهات، ومحاسبة النفس مالا يَعْرِفُهُ الْغَيْرُ، وَيَعْلَمُ مِنْ كَيْفِيَّةِ الْخُشُوعِ وَالتَّذَلُّلِ في العبادة مالا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ، وَيَعْلَمُ مِنْ كَيْفِيَّةِ التَّوْبَةِ وَأَوْقَاتِهَا وصفاتها مالا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ، وَيَتَحَفَّظُ فِيمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْحُقُوقِ مالا يَتَحَفَّظُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَفِي الْوُجُوهِ كَثْرَةٌ، لَكِنَّهُ كما تَعْظُمُ مَنْزِلَةُ أَفْعَالِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي دَرَجَةِ الثَّوَابِ، فَكَذَلِكَ يَعْظُمُ عِقَابُهُ فِيمَا يَأْتِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، لِمَكَانِ عِلْمِهِ حَتَّى لَا يَمْتَنِعَ فِي كَثِيرٍ مِنْ صَغَائِرِ غَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ كَبِيرًا منه" [2].

ج ـ ضبط حركات الأعضاء في الصلاة؛ فمثلا فتح الأعين في الصلاة مع غضها أفضل إلا إذا أخل بالخشوع؛ قال ابن القيم: "والصواب أن يقال: إن كان تفتيح العين لا يُخِلُّ بالخشوع فهو أفضل. وإن كان يحول بينه وبين الخشوع؛ لما في قبلته من الزَّخرفة والتزويق أو غيره مما يشوّش عليه قلبه، فهنا لا يُكرَه التغميض قطعًا، والقولُ

---

[1] ـ تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ٤٦١/٢٩.

[2] ـ مفاتيح الغيب: ٤٩٤/٢٩ ـ ٤٩٥.

باستحبابه في هذا الحال أقرب إلى أصول الشرع ومقاصده من القول بالكراهة. والله أعلم" [1].

وكذلك فإن ضبط سائر الحركات في الصلاة معين على الخشوع؛ ولذلك جاء في الحديث النهي عن تغيير وضعية الثوب والشعر في الصلاة، وضبط وضعية الركوع والسجود والقيام؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : «أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ، وَلَا يَكُفَّ شَعَرًا وَلَا ثَوْبًا: الْجَبْهَةِ، وَالْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَالرِّجْلَيْنِ»[2].

وبتحقيق الخشوع في الصلاة تأتي أهم ثمارها الاجتماعية في منعها من لكثير من الجرائم الناتجة عن الوقوع في الفواحش والمنكرات التي تؤثر على الحياة البشرية سلبا، وبمنعها يكون المجتمع في مأمن من كثير من الأمراض التي تفكك بنيته، وتقضي على التوازن المطلوب في علاقاته المبنية على سلامة الأسرة، والحفاظ على طبيعتها الاجتماعية؛ علاوة على أن ضبط الجوارح في الصلاة يعود صاحبها على ضبطها في تصرفاته الأخرى؛ وبلك فهي من أهم وسائل تعويد الإنسان على الاعتدال، ولزوم السلوك الوسطي القائم على ضبط النفس، ومنعها من الوقوع أي سلوك مشين.

المطلب الثاني: آثار الخشوع في تنمية الاعتدال في الأخلاق:

مر بنا وصف الله لخيرة خلقه وهم الأنبياء بالخشوع؛ وقد ختم به أسباب ما وصلوا إليه من درجات عليا في الخصال الحميدة، بسبب مسارعتهم بالخيرات، ورغبتهم ورهبتهم في دعائهم، وما اتصفوا به من خشوع لرب العالمين:" إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ" (الأنبياء- ٩٠) والخشوع مطردة للأخلاق السيئة من سلوك البشر، وزرع لصفات الاعتدال المستحسنة بين فئات المجتمع؛ وفيه بعد عن طرفي الإفراط والتفريط فيها: قال ابن القيم: " أصلُ الأخلاق

---

[1] - زاد المعاد في هدي خير العباد، [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٣٠)]، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٥٩ - ٧٥١)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، ٣٤١/١.

[2] - أخرجه البخاري في صحيحه في باب السجود على سبعة أعظم، رقم الحديث: ٨٠٩.

المذمومة كلِّها الكِبرُ والمهانة والدَّناءةُ، وأصلُ الأخلاق المحمودة كلِّها الخشوعُ وعلوُّ الهمَّة؛ فالفخرُ والبطرُ والأشرُ والعُجْبُ والحسدُ والبغيُ والخُيَلاءُ والظُّلمُ والقسوةُ والتجبُّرُ والإعراضُ وإباءُ قبول النصيحة والاستئثارُ وطلبُ العلو وحب الجاه والرئاسة وأن يُحمَد بما لم يفعل وأمثالُ ذلك؛ كلُّها ناشئةٌ من الكبر؛ وأمَّا الكذبُ والخِسَّةُ والخيانةُ والرِّياءُ والمكرُ والخديعةُ والطمع والفزعُ والجُبْنُ والبخلُ والعجزُ والكسلُ والذُّلُّ لغير الله واستبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ ونحوُ ذلك؛ [فكلُّها] من المهانة والدَّناءة وصغر النفس؛ وأمَّا الأخلاقُ الفاضلةُ؛ كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفَّة والصِّيانة والجود والحلم والعفو والصَّفْح والاحتمال والإيثار وعزَّة النفس عن الدَّناءات والتواضع والقناعة والصِّدق والإخلاص والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضلَ والتغافُل عن زلَّات الناس وترك الاشتغال بما لا يَعنِيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك؛ فكلُّها ناشئةٌ عن الخُشوع وعلوِّ الهمة"[1].

ولذلك فالخشوع مطلب قرآني موجه للمؤمنين للتفاعل مع ذكر الله: "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (الحديد(١٦ -١٨).

من الآيات السابقة نستخلص عبرا من التاريخ، الذي يبين خطورة قسوة القلوب التي صرفت كثيرا من الأمم السابقة عن الخشوع لما جاء من الحق من عند الخالق وقد حذرنا القرآن من مصيرهم؛ ونلحظ كذلك مظاهر من قدرة الخالق على الإحياء والإماتة، كما هو مشاهد في عالم الأحياء من نباتات وغيرها؛ كما دعت الآيتان البشر إلى البذل في سبيل الله؛ وفي ذلك إشارة إلى أهمية التكافل الاجتماعي، والتعاون بين الناس.

---

[1]- الفوائد [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (١٨)]، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، المحقق: محمد عزير شمس، راجعه: جديع بن محمد الجديع - محمد أجمل الإصلاحي - علي بن محمد العمران، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، ص:٢٠٩.

وهو ما تؤكده الآية التالية: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً " الأحزاب (٣٥).

وفيها يتوسط الخشوع الصفات المرضية عند رب العالمين والتي بدأت بالإسلام الذي هو اسم يحمل دلالات السلام والتسامح؛ وفيه معاني المحبة والرفق والبعد عن العنف ومرت بالإيمان والصدقة وهي من أفضل الأعمال لأن فائدة متعدية، وذكرت الصوم والعفة وختمت بذكر الله وهو عطر كل خاتمة.

ومما يؤكد علاقة الخشوع بالمظاهر الاجتماعية، والمشاعر النفسية النابعة من مراعاة الإسلام لهذه الطبائع، استحسانه للخشوع في المصائب؛ مواساة للمصابين، وتخفيفا عنهم؛ قال ابن القيم: "وسَنّ الخشوع للموت، والبكاءَ الذي لا صوت معه، وحزنَ القلب. وكان يفعل ذلك ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرَّبَّ»[1].

ولذلك فإن الخشوع يحمل الإنسان على أن يكون اجتماعيا أكثر ومحافظا على قيم مجتمعه الحميدة، وفاعلا في مجتمعه على وجه المصلحة الذي تنشده المقاصد الشرعية العظيمة، والتي تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد؛ وهو ما تحققه الأخلاق المبنية على العلاقة القوية بالله التي يزن صاحبها أخلاق بأخلاق الرسل وأهل الفضل ممن ووصفهم الله بهذه الصفات الحميدة.

---

[1]- زاد المعاد في هدي خير العباد، [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٣٠)]، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٥٩ - ٧٥١)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)، ٦٤٠/١.

المطلب الثالث: الخشوع تنمية الاعتدال وفي المعاملات:

الاعتراف بالسلطة والتواضع والرفق: من المعروف أن الإسلام يدعو إلى التواضع؛ ويحذر من الكبر؛ قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ" (الأعراف:(١٤٦)، وقال تعالى: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً" (الكهف: ٢٨)، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على التواضع؛ فقال: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"[١]، وقال: "وإن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد"[٢]... وقد وصف الشعراوي الخشوع في تفسيره بأنه قمة التواضع والاعتراف بالحقوق لأهلها؛ فقد ذكر أنه خضوع مصحوب بموهبة في الطاعة والتواضع، يتميز بها صاحبه عن غيره؛ وذلك حيث قال: الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع. فالناس يتفاوتون في القيم والمواهب. وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومواهبه... ويقول: أنا خير من فلان. أو أنت خير من فلان. إذن فمن الممكن أن يستكبر الإنسان بما عنده. ولكن الإنسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده. لأنه لو تكبر عليه أتعبه في دنياه. ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب على الشيوع والخشوع على الشيوع. فكل إنسان منا محتاج

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه ونصه: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"، باب استحباب العفو والتواضع، رقم الحديث: ٢٥٨٨.

[٢] ـ أخرجه مسلم في صحيحه، ونصه: عن عياض بن حمار؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم. وساق الحدي..." باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار" ، رقم الحديث: ٢٨٦٥.

للآخر. هذا خشوع على الشيوع. وكل إنسان منا مميز بما لا يقدر عليه غيره. هذه مواهب[1].

ـ الاستقامة والطاعة وخمود نيران الشهوات: فقد نقل ابن القيم ارتباط الخشوع بالانقياد للخالق، وصدوره من القلب، وعلاقته بالتأثير في الأعضاء؛ حيث قال:"الخشوع الانقياد للحقِّ، وهذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته أنَّ العبد إذا خولف أو رُدَّ عليه بالحقِّ استقبل ذلك بالقبول والانقياد، وقيل: الخشوع خمود نيران الشَّهوة، وسكون دخان الصَّدر، وإشراق نور التعظيم في القلب، وقال الجنيد ـ رحمه الله-: الخشوع تذلُّل القلوب لعلَّام الغيوب.[2].

أداء الحقوق والوفاء: ومن دواعي الخشوع لله الرفق بالآخرين والوفاء بحقوقهم؛ قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم "فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران: (١٥٩)، قال الإمام الشوكاني: "وَالْمَعْنَى: لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَرْفُقُ بِهِمْ لَتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِكَ، هَيْبَةً لَكَ، وَاحْتِشَامًا مِنْكَ، بِسَبَبِ مَا كَانَ مِنْ تَوَلِّيهِمْ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذُكِرَ فَاعْفُ عَنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكَ مِنَ الْحُقُوقِ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِيمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ أَيِ: الَّذِي يَرِدُ عَلَيْكَ، أَيَّ أَمْرٍ كَانَ مِمَّا يُشَاوَرُ فِي مِثْلِهِ، ،،،، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَطْيِيبِ خَوَاطِرِهِمْ وَاسْتِجْلَابِ مَوَدَّتِهِمْ، وَلِتَعْرِيفِ الْأُمَّةِ بِمَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ، حَتَّى لَا يَأْنَفَ مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدَكَ"

الإيثار والمساواة: ـ التخلي عن حظوظ النفس والتخلق بصفة الإيثار. وهي القيم التي دعا إليها القرآن، والخشوع أهم وسائلها قال الله تعالى: "وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الحشر ـ ٩)، وفي شأن الصبر مع المستضعفين، وعدم الترفع عليهم، وهومن أهم مقتضيات الخشوع قال

---

[1] ـ تفسير الشعراوي – الخواطر: ص:٣٠٨/١

[2] ـ مدارج السالكين في منازل السائرين، [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٣١)]، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٥٩ ـ ٧٥١)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) ـ دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ ـ ٢٠١٩ م، ١٩٤/٢

تعالى مخاطبا النبي صلى الله عليه وهو سيد الخاشعين "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً" (الكهف(٢٨)

وبذلك يكون الخشوع دافعا إلى بناء شخص متزن روين؛ يتحكم فيه منطق العقل والدين والأخلاق، وليس مجرد العاطفة؛ يحب الخير للآخرين، ويبتعد عن العنف بكل أشكاله، ويحرص على أن يكون وسطيا معتدلا في عباداته ومعاملاته وأخلاقه.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. بعد تطواف يسير من مقل بين آيات القرآن البينات التي تتناول الخشوع ظهرت فيه بعض معالم هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تنقضي فوائده، ولا يصل العلماء إلى قعر بحره مهما غاصوا في أعماقه، ولا تنقص لآلئه مهما استخرجوا من نفائس جوارها الثمينة؛ فهو مصباح المصابيح المنير الذي يستضاء به في كل زمان وفي كل مكان ليبدد ظلمات الجهل، ويزيل كل غم، ويرفع كل لبس.

وكان من نتاج تأمل آياته والاستعانة ببعض معاجم اللغة ومشاهير المفسرين وعلماء الميدان حصد قطف بعض الثمار حول هذا الموضوع المهم لكل البشرية، بل لكل الكون بما فيه من مخلوقات وكائنات؛ يمكن تسجيل أهمها فيما يلي:

- تشمل معاني الخشوع أمورا كثيرا منها الخضوع؛ وإن كان الأخير ألصق بالأعضاء؛ فهو تابع للأول، لأنه نابع من القلب؛ كما يحيل إلى معان تدل على كمال الأدب والسكينة؛ مثل غض البصر وخفض الصوت، ومن معانيه الإخبات الذي يمنح صاحبه التواضع الاطمئنان والاستواء، كما يدل على الأمانة، والامتناع عن أخذ العاجلة بالآجلة، كما يعبر عن علم الخشية والاستسلام والانقياد لله انسجاما مع نظام الكون...

- أما حكم الخشوع في الصلاة فالراجح فيه ما أشار إليه الإمام الغزالي من اشترطه، أوما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية من أنه واجب؛ انطلاقا من مضمون الآيات القرآنية، وتصريح الحديث الصحيح، الذي وضع فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - الخشوع بين شرط الصلاة الذي هو الطهارة، وبين ركنها الذي هو الركوع فدل ذلك على تردده بينهما.

والخشوع في القرآن يتناول أمورا كونية؛ كخشوع الأرض بما فيها من أشجار وما عليها من مظاهر الحياة، وهو حالة تنتاب الجبال الرواسي كذلك على ما بها من قوة وامتداد جغرافي قد يتجاوز القارات، وعمق يصل أعماق الأرض، وقيعان المحيطات ... وقد ورد بصيغ مختلفة في ثنتي عشرة آية من القرآن الكريم؛ كما وصف به خيرة خلق الله من الأنبياء والعباد الصالحين، وقد جعله القرآن رتبة فوق الإيمان؛ واستبطأ خشوع

المؤمنين "الم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم"، لذلك فهو مطلب قرآني يلزم كل مؤمن أن يتحلى به، ويسعى في تحصيله، وهو ليس أمرا ترفيا أو اختياريا أو كماليا كما يتبادر إلى أذهان الكثير.

والخشوع يكسب صاحبه حقيقة العبادات وتذوق حلاوتها وعلى رأسها الصلاة التي يمثل الخشوع روحها وأهم أوصافها كما عبر عن ذلك القرافي، وهو يعطي المتحلي به كثيرا من الاتزان والتواضع، وبعد النظر؛ والاعتدال في السلوك المبني على التواضع واحترام الآخرين، والصدق والأمانة في المعاملات، وعدم اللجوء إلى العنف أو الشحناء في الأمور الخلافية؛ مما يجعله أبرز مؤشر تربوي على صلاح الشخص، وعلى بعده عن الإفراط والتفريط، والتزامه بالمنهج الوسط.

وهذا العمل المتواضع لا يعدو أن يكون خطوة أولية في بناء صرح هذا الموضوع؛ عله يكون حافزا للباحثين على مزيد من دراسته وتأمله، ولفت الانتباه إليه؛ أسأل الله أن يكون خطوة على درب خدمة كتاب الله وتقريب الناس من مفاهيم القرآن والسنة التي تصلح القلوب، وتنير البصائر، وتحيي حقائق الأعمال كما يفعل المطر بالأرض الميتة.

توصيات: وفي الختام لا يسعنا ونحن نسطر الحروف الأخيرة من هذا العمل إلا أن نلفت انتباه القراء إلى ما يلي:

- تصميم الخشوع باعتباره موضوعا مستقلا في محتويات البرامج الدرسية خاصة في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي.

- تدريس الخشوع في مقدمة كل موضوع من العبادات والمعاملات والأخلاق والسير؛ وذلك لأنه يشعر بربط هذه الموضوعات بجوهر العلاقة بخالق الكون؛ مما يجعل المتلقي يزداد اهتماما بها.

- اعداد المزيد من الدراسات في موضوع الخشوع من القرآن؛ وخاصة علاقته بالسياقات التي يرد فيها؛ لتبيان أهميته.

- التركيز على أهمية الخشوع عند الحديث عن الصلاة تعليما.

وفقنا الله وإياكم لخدمة كتابه وتلاوته وتدبره والعمل به والدعوة إليه على الوجه الذي يرضيه.

فهرس المصادر والمراجع:

- **الألباني**: محمد ناصر الدين الألباني [ت ١٤٢٠ هـ]،

١) ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى لمكتبة المعارف، عام النشر: جـ ١ ـ ٤: ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م،

- **ابن تيمية**: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ)،

٢) ـ شرح عمدة الفقه [آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال (٢٥)]، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) ـ دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩ م،

- **البخاري**: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل.

٣) صحيح البخاري، البخاري الجعفي، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣.

- **ابن أبي حاتم**: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (ت ٣٢٧هـ)،

٤) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة ـ ١٤١٩ هـ،

- **جرير**:

٥) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، المحقق: د. نعمان محمد أمين طه، الناشر: دار المعارف، القاهرة – مصر، الطبعة: الثالثة،

- **الرازي**:

٦) ـ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤٢٠ هـ.

- **السبكي**: محمود محمد خطاب السبكي

٧) المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود، الناشر: مطبعة الاستقامة، القاهرة – مصر الطبعة: الأولى، ١٣٥١ - ١٣٥٣ هـ

- بنت الشاطئ: عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت ١٤١٩هـ).

٨) التفسير البياني للقرآن الكريم، المؤلف: دار النشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السابعة؛

- **الشاطبي**: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)

٩) الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

١٠) تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، (ليس على الكتاب الأصل - المطبوع - أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام ١٩٩٧ م)

- **الشوكاني**: المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)،

١١) فتح القدير، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ،

- **ابن عاشور**: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور

١٢) التحرير والتنوير: ، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ،

- **الغزالي**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)،

١٣) إحياء علوم الدين، الناشر: دار المعرفة – بيروت؛

- ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)،

١٤) معجم مقاييس اللغة؛ المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

- **الفيروزأبادي:**

١٥) القاموس المحيط، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، أعوام النشر: (١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ) = (١٩٦٥ - ٢٠٠١ م)، وصَوّرتْ أجزاءً منه: دار الهداية، ودار إحياء التراث وغيرهما

- **القرطبي:**

١٦) تفسير القرطبي، توزيع: دار التربية والتراث - مكة المكرمة - الطبعة: (بدون تاريخ نشر)

- **القرافي:** أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت ٦٨٤هـ)

١٧) الذخيرة، تحقيق: جزء ١، ٨، ١٣: محمد حجي، جزء: ٢، ٦: سعيد أعراب، جزء ٣ - ٥، ٧، ٩ - ١٢: محمد بو خبزة، الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م،

١٨) الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ

- **ابن القيم:** أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٥٩ - ٧٥١):

١٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٣٠)]، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم).

٢٠) كتاب الصلاة، ضمن (آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها) من أعمال، المحقق: عدنان بن صفاخان البخاري، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير -

محمد أجمل الإصلاحي - علي بن محمد العمران، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م .

٢١) مدارج السالكين في منازل السائرين، [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (٣١)]، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م، ١٩٤/٢.

- **مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري،

٢٢) «الصحيح، (طبعة مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة)، المحققون: أحمد بن رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري - محمد عزت بن عثمان الزعفران بوليوي - أبو نعمة الله محمد شكري بن حسن، الناشر: دار الطباعة العامرة – تركيا، عام النشر: ١٣٣٤ هـ، ثم صَوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى عام ١٤٣٣ هـ لدى دار طوق النجاة - بيروت، مع إثراء الهوامش بترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباق.

- **ابن منظور**:

٢٣) لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ،

- **أبو نصر**: أحمد بن حاتم الباهلي (ت ٢٣١ هـ)،

٢٤) شرح ديوان ذي الرمة لأبي نصر الباهلي، رواية ثعلب، المؤلف: تحقيق: عبد القدوس أبي صالح، الناشر: مؤسسة الإيمان جدة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٢ م - ١٤٠٢هـ.

- **النووي**: المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)

٢٥) فَتَّاوَى الإمامِ النَّوَوَيِ المُسمَّاةِ: "بالمَسَائِلِ المنْثورَةِ"، ترتيبُ: تلميذه الشيخ عَلَاء الدِّين بن العَطّار، تحقِيق وتعلِيق: محمَّد الحجَّار، الناشر: دَارُ البشائرِ الإسلاميَّة للطبَاعَة وَالنشرَ والتوزيع، بَيروت – لبنان، الطبعة: السَادسَة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.